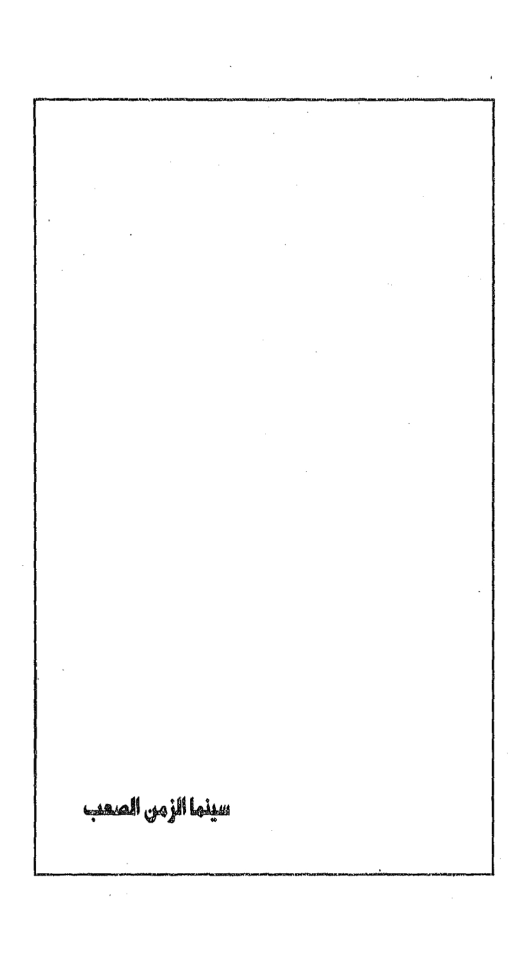
مهرجان القراءة للجميع

رءوف توفيق

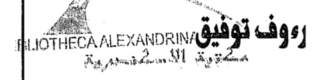
سينما الزمن الصعب





سينما الزمن الصعب

سينما الزمن الصعب



رءوف توفيق



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أعمال فكرية)

سينما الزمن الصعب

رءوف توفيق

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف

الإشراف الفنى:

محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وأن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان



هذا الكتاب

بالتأكيد.. نحن نعيش فى الزمن الصعب

زمن.. أصبح فيه العنف والحدة والوحشية طابعا للحياة اليومية.. الكبار يضغطون على الصغار.. والصغار يتقاتلون.. وهناك من يتحين الفرصة للانقضاض على الجميع، والتهام كل شئ!

والدوامة لا نهاية لها.. مريرة ومؤلمة!

ما الذى حدث؟!

كيف توارى الإنسان الحقيقى وأصبح عملة نادرة، مكانها المتاحف التذكارية!!

لقد تغير العالم كثيرا.. وتغيرنا نحن سواء أردنا أو لم نرد.. سواء اكتشفنا هذا، أو لم نكتشفه بعد!

ولنتوقف قليلا أمام الصور القديمة لأبائنا وأجدادنا.. ولنسأل لماذا كانوا بمثل هذا الهدوء والاستقرار وراحة البال؟ ولماذا أصبحنا

نحن فى زمـاننا هذا.. أكثر حدة وشـراسة وقسوة؟ وكيـف تعودنا على منظر الدم، وطلقات الرصاص، وأنين الضحايا والمظلومين؟

مـا الذى جرى.. حتى كاد أن يصبح غير مسموح بالحياة، إلا إذا تنازلنا عن بعض صفاتنا الإنسانية؟

والمأسـاة أن هذا التنازل الاجبـارى، غـالبـا مـا يكون ثمنه هو التطرف:

التطرف فى العنف.. التطرف فى الجنس.. التطرف فى الدين!

وأصبحنا نسمع ونعيش فى كل لحظة، أهوالا لا ندرك مداها.. ولا نعرف ما الذى سيحمله لنا الغد؟

يقول المحللون فى أبحاثهم ودراساتهم، أن السبب الحقيقى لما حدث هو الحرب الباردة بين النظم السياسية.. ومحاولات الدول الكبرى للسيطرة على الدول الصغرى.. والسلاح الفعال فى هذه الحرب، هو الاقتصاد!

والاضطراب الاقتصادى الذى شمل العالم كله خلال السنوات الأخيرة، انعكس على الجميع.. وتوالت الانفجارات.

قـتل.. اغـتـصــاب... ارهاب.. تدمـيـر.. قـمـع.. تسلط.. انهيارات!!

ثم.. ماذا بعد؟

والسؤال على حافة بركان يهدر بالحمم والأخطار.

والسينما العالمية تقف بالقرب من البركان.. أحيانا تسجل ما يحدث.. وأحيانا تشعل النار أكثر!!

ففى الكوارث، هناك دائما اللصوص الذين ينهبون، ويخطفون، ويدوسون من حولهم بالاقدام. ثم يحاولون بيع وترويج غنائمهم المسروقة فى الظلام!!

وهؤلاء لن نتوقف عندهم.. لأن أسماءهم مكتوبة فى سجلات الخطرين على الأمن.. وحالتهم من اختصاص أطباء علم النفس وأساتذة الاجتماع والمحللين لعالم الجريمة.. وتجار هذه السينما المريضة لن يذكرهم تاريخ فن السينما.. ولكن بالقطع سيذكرهم تاريخ الافساد الفكرى والتخريب!

ولكننا نتوقف ـ فى هذا الكتاب ـ عند هؤلاء المفكرين الفنانين، الذين راعهم مايحدث.. فتناولوا كل بطريقته، تسجيل أو تحليل هذه الظاهرة فى أفلامهم.

ومهما تفنن هؤلاء المخرجون فى تصوير الحياة المتوحشة..

وابتكار الأساليب السينمائية لتجسيد المعنى المطلوب ايصاله للمتفرج.. مهما امتلأت أفلامهم بالدم والأشلاء والضحايا.. إلا أن العنف الدائر فعلا فى الواقع أشد إيلاما!!

تكفى قراءة سريعة لصحف الصباح، لتكتشف أن العالم يكاد يأكل بعضه، وتكتشف أن أخبار الجريمة موجودة فى صفحة السياسة كما هى موجودة فى صفحة التسالى!! وان هناك حالة من السعار تتفشى بين المجتمعات الصغيرة والكبيرة على السواء!

●●

والغريب أن نلاحظ.. أن ما كان يفزع الناس فى الماضى، أصبح الآن لا يهز شعرة واحدة فى رؤوسهم!

وقد كان شيئا مثيرا بالنسبة لى أن أشاهد فى مهرجان «كان» السينمائى لعام ٧٧ . فيلما أمريكيا بعنوان: (هذه هى الإثارة) ويقوم الفيلم على تجميع مشاهد الحركة والاثارة من خلال الأفلام الأمريكية القديمة، وصوت المعلق يتغنى بتلك الأيام ويصفها: (أجمل أوقات الأحصنة والبنادق) .. وتضج قاعة العرض بضحكات المتفرجين، وهم يستعيدون ذكرياتهم، عندما كانت هذه الأفلام فى وقتها تجعلهم يتجمدون على مقاعدهم من الرعب والانبهار!!

وفى مهرجان «كان» لعام ٧٨ .. عرض أيضا فيلم أمريكى بعنوان: (الغرب العنيف) يتبع نفس الطريقة فى تجميع مشاهد العنف فى الأفلام الأمريكية القديمة.. ومرة أخرى تضج قاعة العرض بالضحكات، وهم يشاهدون نجومهم المفضلين فى

الأربعينات وبداية الخمسينيات وهم يمثلون فى ذلك الوقت أقصى درجات العنف.. يتقاتلون.. ويشعلون الحرائق.. ويخطفون النساء.. ويتراشقون بالرصاص فى الحانات الصغيرة!!

وما أثار الضحك هنا.. إن العنف القديم.. أصبح الآن لا يستسيغه حتى الأطفال إنه عنف شديد الرقة بالمقارنة بما حدث الآن!!

وقد شهدت السينما الأمريكية منذ منتصف الستينيات، بداية ظهور أفلام العنف الدامى الشرس.. وتطورت هذه الأفلام وزادت الجرعة المتوحشة.. ودخل التليفزيون منافسا فى هذا المجال... واهتزت قلاع السينما من تأثير هذه المنافسة. وانخفضت ايرادات الأفلام.. ثم اقتحمت دور العرض فى مختلف أنحاء العالم، أفلام قادمة من استوديوهات «هونج كونج».. أفلام تقوم على الكاراتيه والسلاح الأبيض.. أفلام قليلة التكاليف، منحطة المستوى، ولكنها سريعة الانتشار.. حتى أصبحت كالوباء المدمر الذى يحصد كل شئ فى طريقه: الذوق، والفن، والفكر، والإنسانية!

وأصبح على السينما الأمريكية أن تحارب من أجل البقاء.. فظهرت مجموعة أفلام الرعب والكوارث، مستخدمة فى ذلك كل وسائل التكنولوجيا الحديثة، لاحداث الهزة المطلوبة فى مشاعر المتفرجين!!

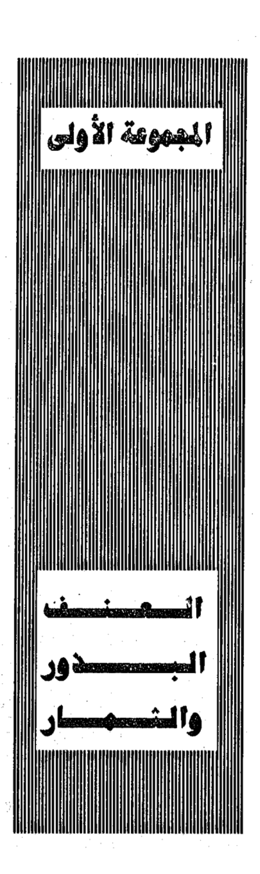
وهكذا أصبحت المنافسة الآن عمن يقدم فيلما أكثر رعبا وإثارة!!

وفى إحدى ندوات التليفزيون الأمريكى، بين رجال السينما والتليفزيون، وجه رئيس محطة (أ.ب.س) التليفزيونية، سؤالا إلى أحد منتجى أفلام العنف فى السينما: «لماذا يجب أن تكون أفلامك عنيفة إلى هذه الدرجة» ؟!

وجاءت اجابة المنتج السينمائى: «إن ذلك خطأ التليفزيون أساسا.. فإذا كان التليفزيون يناقش كل شئ.. فالسينما مجبرة على اختراق التفاصيل.. وعلى سبيل المثال إذا ألقينا نظرة على ما تعرضه نشرات الأخبار فى التليفزيون، وجدناها تحتوى على لقطات لجثث الضحايا فى الشوارع، وكل الأحداث الدامية، بالتفاصيل.. وهى أحداث لانستطيع مجاراتها فى حيثها عندما نصنع الأفلام.. ولذلك نضطر إلى زيادة الجرعة حتى نتميز بشئ عنكم..»!!

وهذا القول على مافيه من تبرير سهل ومضمون، لاتجاه بعض شركات السينما لمنافسة للتليفزيون، واغراق الأسواق بأفلام مثيرة ممتلئة بالعنف والرعب.. إلا أن هذا الاتجاه التجارى المريض - المرفوض بكل المقاييس - يجب ألا يشغلنا عن حقيقة الأعمال الفنية الجيدة، المتميزة، التى تعبر بفهم ووعى عن ظروف عصرنا المضطرب، الشديد الوحشية.

«رءوف توفيق»



• « ألا يثق فى أحد .. أن يفكر فى مصلحته فقط .. أن يكره زملاءه.. أن يركع أمام رؤسائه .. هذه الأفكار تمثل فى رأيى منتهى العنف » !

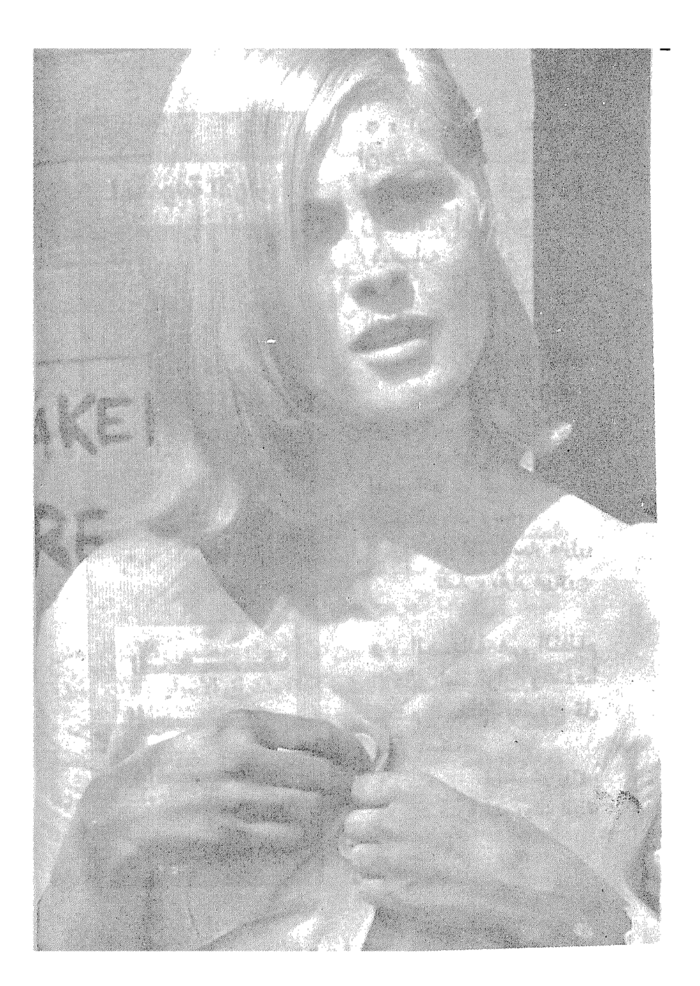
«ماريو مونشيللى» مخرج فيلم
برجوازى صغير .. صغير »

• «يبدو لى أن مجيئ للعالم .. كان أحد الأخطاء المروعة»

من فيلم «كاسبار هاوزر»
للمخرج «فرنر هيرتزوج»

• « العدالة هى النظام الأكثر استقرارا وعندما تهدم العدالة يصبح كل شئ ممكنا»

«فرانشيسكو روزى»
مخرج فيلم «جثث لذيذة»



بونى وكلايد

فى عالم العنف والجريمة. هناك مئات من قصص العصابات التى دوخت البوليس وأثارت الفزع والرعب بين الآمنين.

ولكن هذا الفيلم يقدم عصابة يتعاطف معها الأهالى، ويتبارون للترحيب بها والانضمام إليها.. وعندما ينجح البوليس فى النهاية فى حصار العصابة.. يشعر المتفرج بالأسف والحزن على مصيرهم المحزن!!

وهذا التعاطف الذى يحيط به الفيلم أفراد عصابة. وينعكس بالتالى على المتفرج.. جزء من أهمية هذا الفيلم وتفرده الخاص..

وهكذا يظل فيلم «بونى وكلايد» أحد العلامات البارزة فى سينما العنف، ويكاد يكون أول مؤشر حقيقى لهذا الاتجاه فى السينما.

إنه يقدم ملامح من الحياة الأمريكية فى أوائل الثلاثينيات، أيام فترة الكساد الاقتصادى التى سيطرت بخرابها وكآبتها وهمومها على كل مواطن أمريكى.. فى هذه الفترة خرج شاب يائس مما

حوله، ليشهر مسدسه ضد مراكز تجمع الأموال فى الخزائن. أينما كانت!!

المكان.. مدينة دالاس بولاية تكساس.

وهذا الشاب «كلايد بارو» تبدو عليه الوسامة والحيوية وخفة الدم.. يبدأ به الفيلم وهو يحاول سرقة احدى السيارات.. ولكن تظهر له فتاة «بونى» لتضبطه متلبسا، فالسيارة هى سيارة أمها.. وتندهش جدا من جرأته.. إنه يقدم نفسه إليها بأنه كان مسجونا بسبب جريمة سطو مسلح. وها هو خارج لتوه من السجن ويريد أن يسترد الوقت الذى ضاع منه فى السجن.. وتزداد دهشة الفتاة من بساطة تبريراته.. فيقول لها بمنتهى الثبات والابتسامة لا تفارق شفتيه: «وماذا تريديننى أن أفعل.. هل أجلس لأتامل العشب وهو ينمو»!!

وتتأمله الفتاة «بونى» فى فضول بالغ. وحتى يبهرها أكثر بأسلوبه ومهارته وجرأه.. يخرج مسدسه ويعدها بسرقة خزينة هذا المحل الموجود على الناصية المقابلة.. وبالفعل يتحرك بسرعة لينفذ ما وعد به.. ويخرج بعد قليل من المحل حاملا كل ما تحتويه خزانته.. وتشهق من المفاجأة والفرح.. فيدفعها بسرعة إلى احدى السيارات الواقفة. ليقودها بسرعة هاربا من المكان.

فى لحظات قليلة استولى على خزانة محل.. واستولى على سيارة.. واستولى أيضا على مشاعرها!

ولا تتمالك الفتاة نفسها من ابداء اعجابها به.. تحتضنه وتقبله بفرح ونشوة.. فيحدد نفسه أكثر بالنسبه بقوله: «يمكنك أن تعودى الآن إلى أمك فى دالاس.. أو تبقين معى»!

إنه يضعها أمام الاختيار.. وحتى يوضح مامعنى البقاء معه.. يقول: «إننى اتطلع إلى ماهو أفضل.. واعتقد أنك مثلى! ألا تحلمين بتناول العشاء فى أفخر فنادق المدينة وأن ترتدى ثيابا أنيقة؟ إذا كنت قد سألت نفسك كيف يمكن أن تغيرى حياتك. فها أنت قد عرفت الآن..»؟

ولا تستطيع هى أن تقاوم اغراء المغامرة وجاذبية هذا العرض.. وتوافق على الفور ويصبحان معا.. «بونى كلايد».

ويحتفل هو بانضمامها إليه.. ويصبح الاحتفال هو تدريبها على كيفية امساك المسدس واطلاق النار.. وفى احدى المزارع المهجورة.. يكتشف بيتا خاليا من سكانه.. فيقيمان فيه. ويدربها على اطلاق النار.. ولكنهما يفاجأن بأحد المزارعين ومعه أسرته وأطفاله.. يقفون أمامهم يتأملونهم.. ويسرع «كلايد» باعداد مسدسه.. ولكن المزاع يطمئنه بأنه جاء فقط ليلقى نظرة على هذا البيت.. فقد كان بيته قبل أن يستولى عليه البنك وفاء لتسديد ديونه.. وقد طردهم البنك جميعا من هذا المكان.. ويتقدم منه «كلايد» ليعطيه مسدسه، ليطلق الرصاص على لافتة البنك



الموضوعة على البيت.. احتجاجا على اجرائه بطردهم.. وبالفعل يمسك المزارع بالمسدس ويطلق الرصاص على اللافتة حتى يفتتها تماما.. وهنا يقف «كلايد» بثقة مشيرا إلى «بونى» ويعلن للمزارع عن مهمتهما: «نحن نسرق البنوك»!

إنه يتباهى فخورا بمهمته!

إنه ليس مجرما محترفا.. بل هو مجرم صاحب مهمة محددة.. أن يسطو على الخزائن والبنوك لينتقم من الذين تسببوا فى الأزمة الاقتصادية والكساد الرهيب والتشرد والبطالة وطرد السكان من

منازلهم.. ولهذا فهو لا يرفع مسدسه فى وجه أحد المواطنين التعساء الفقراء!

وتشتهر أخبار وعمليات هذه العصابة فى كل أنحاء الولاية ويصبح اسميهما «بونى وكلايد» على كل لسان.. وما أن يتعرف عليهما هذا العامل الصغير، البدين، الذى يعمل فى أحدى محطات البنزين فى الطريق العام.. حتى يعلن لهما عن رغبته فى الانضمام اليهما.. فهو على الأقل يجيد اصلاح السيارات. ويمكنه أيضا استخدام المسدس.. أى أنه سيكون مفيدا بالنسبة لهما.. ويلح هذا الشاب فى طلبه، وعلى وجهه ترتسم كل علامات الرجاء.. يريد المغامرة والهروب من سيطرة أبيه صاحب محطة البنزين الذى يعايره دائما بفشله وبدانته وبلاهته..

ويوافق «بونى وكلايد» على انضمام هذا الشاب إليهما.. وما أن يسمع خبر الموافقة حتى يقفز بسرعة إلى سيارتهما تاركا كل شئ وراءه!

وهكذا تصبح العصابة مكونة من ثلاثة «بونى وكلايد» ثم هذا الشاب البدين «موس» الذى يثير جوا من الفكاهة والمرح.

وينطلق الثلاثة فى عمليات السطو على البنوك.. أحيانا تنجح هذه العمليات.. وأحيانا تفشل.. ولكن عندما تكرر الفشل أكثر من مرة.. يفكر «كلايد» فى الاستعانة بشقيقه «باك» الذى خرج لتوه

من السجن.. ويأتى إليهم «باك» ومعه زوجته «بلانش» وهى امرأة صوتها حاد. تنتابها نوبات هيستريا من حين لآخر.. تبكى وتصرخ فزعة وهى تردد أن والدها قسيس ولابد أنه سيموت كمدا لو عرف أن ابنته مشتركة فى عصابة للسرقة والقتل.. ويثور ضدها «كلايد» ويؤنبها بشدة.. فتصمت خوفا منه.. وتمضى بهم الأيام!

لقد أصبحوا خمسة أفراد.. وتنتشر أكثر اخبارهم فى الجرائد.. ويطاردهم البوليس من ولاية إلى أخرى ويكاد يقبض عليهم البوليس أكثر من مرة.. ولكنهم يفلتون بأعجوبة.. ويزداد اعجاب الأهالى بهم.. وتوالى الجرائد نشر عملياتهم.. وتجد «بونى» هذه الفرصة مواتية لمزيد من الشهرة.. فهى ترسل إلى الجرائد صورهم التى يلتقطها لهم «باك» شقيق «كلايد» أثناء عملياتهم. وأثناء حياتهم اليومية العادية.. ولاتنسى أن تكتب على ظهر الصور ابياتا من الشعر من تأليفها تصف فيها بطولاتهم ونوادرهم.. وتسعد سعادة بالغة عندما تجد الجرائد تنشر لها ما ترسله!

وتنتابهم النشوة لكل هذه الشهرة!!

إنهم يشعرون أنهم أقوى من أن تصل إليهم يد البوليس.. وفى نفس الوقت يشعرون بالآمان لتعاطف الجمهور العادى معهم

واعتبارهم أبطالا يحققون العدل لهم من خلال سرقة خزائن البنوك التى شردتهم. أو خزائن كبار الاقطاعيين.

لقد أصبحوا المثل الأعلى لعدد من الشباب الذين وجدوا فى



أسلوب هذه العصابة نوعا من ارضاء الذات.. والخروج من المأزق الاجتماعى والاقتصادى الذى يعيشون فيه!

ولا يرضى البوليس بهذا الوضع.. وتشتد مطاردتهم لهذه العصابة التى أصبح اسمها وأخبارها على كل لسان.. وتنتشر قوات البوليس لتتبع تحركاتهم.. بينما هم يمارسون عملياتهم ولكن باحساس أكثر بالتوتر والقلق. بعد أن أصبحت شهرتهم وبالا عليهم. وتكتل البوليس لمطاردتهم.. وإن كانوا لا يفقدون فى نفس الوقت هذا الاحساس بالفكاهة والسخرية.. ففى كثير من اللحظات الصعبة تحميهم الابتسامة من الانهيار السريع.

ولكن النهاية تحاصرهم.. ويصاب «كلايد» ومعه «بونى» فى احدى عملياتهم.. ويقترح عليهم زميلهم البدين أن يلجأوا للاختفاء داخل منزل والده صاحب محطة البنزين.. فهو قادر على اقناع والده بهذا.. وبالفعل يلجأون إليه.. ويوافق الأب على استضافتهم بينما يتنازعه احساسان متناقضان.. الخوف من الضرر الذى سيلحق به لو عرف البوليس مكانهم عنده.. وفى نفس الوقت الاعجاب بشجاعة «بونى كلايد» حتى أنه يؤنب ابنه بأن اسمه لاتنشره الصحف مثل ما نشر أسماء وصور «بونى وكلايد»

وعندما يتم شفاء «كلايد» يحاول أن يعرض على الأب أن يدفع له ثمن استضافتهم.. ولكنه الأب يرفض بشدة معلقا: «يكفينى فقط.. صداقتكما لابنى»!

وينصرف الجميع شاكرين له هذه الفترة التى قضوها فى بيته.. بينما يسرع الأب بالاتصال بالبوليس لابلاغهم بما حدث واستعداده لتسليمهم العصابة فى مقابل معاملة أبنه بالرأفة!

ويلتقط البوليس هذا الخيط ليتعقب العصابة.. حتى يحاصرها.. وتأتى أعنف مشاهد الفيلم.. وأكثرها وحشية.

عندما ينهمر رصاص البوليس من كل جانب وبغزارة لا مثيل لها.. ليحصد أفراد هذه العصابة الذين كانوا فى ذلك الوقت يستريحون على العشب فى بقعة ريفية هادئة.. كانت بونى تجلس مع كلايد فى سيارتهما.. بينما الباقى يتفرقون على العشب.

ويتفجر الدم.. وتنطلق الصرخات.

يموت «باك» بعد أن تهشم نصف وجهه.. ويخترق الرصاص عينى زوجته «بلانش» لتصاب بالعمى.. بينما يتمزق تماماً جسد كل من بونى» و «كلايد»!!

ويتعمد المخرج أن يقدم هذه اللقطات العنيفة الدامية. بالتصوير البطئ.. لكى نرى مسار طلقات الرصاص وانبثاق الدم بين تعبيرات الألم والفزع والموت!

وهكذا كانت النهاية.

وهذا الفيلم الذى أبدعه المخرج الأمريكى «أرثر بن» يشهد له ببراعته الفنية وبأسلوبه السينمائى المتميز فى معالجة العنف.. فالعنف الذى نراه فى الفيلم هو نتيجة لتفكك وانهيار مجتمع..

وفى حالات الانهيار تختلط المسائل وتصبح البطولة للذين يتوهمون بقدرتهم على استخلاص حقوقهم الضائعة بقوة السلاح.. وهذا الظن لايقوم على أساس منطقى وعقلى.. بل هو رد فعل عاطفى لما يجرى فى المجتمع.. وقد نعجب بشجاعة وجرأة هؤلاء المجرمين ولكن لسبب عاطفى أيضا.. لأننا نعلم جيدا أنهم ليسوا مجرمين بطبيعتهم. واستمرارهم فى الاجرام ليس حرفتهم.. ولكن نوع من فقدان المثل الأعلى والقدوة وغياب الأمل فى الاصلاح.

أنهم ضائعون.. فى مجتمع ضائع.

ولهذا قد نعذرهم.. وقد نتعاطف معهم.

وقصة عصابة «بونى وكلايد».. قصة حقيقية.. فقد كانت موجودة فى ولاية تكساس وانتشر نشاطها إلى ولايات أمريكية أخرى.. وصحف تلك الفترةكانت تحفل بالفعل بأخبارهم وصورهم.

ويقول المخرج «آرثر بن» إنه عاش تلك الفترة، فترة الأزمة الاقتصادية وتابع أخبار بونى وكلايد من خلال الصحف.. وعندما قرر أن يصنع هذا الفيلم عاد للبحث فى أغوار هذه الفترة.. ولكنه يعترف بأنه اكتشف أن ماكتب عن تلك الأونة. كان ضئيلا نسبيا رغم ما لهذه الفترة من أهمية بالغة فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.. ويعترف المخرج أيضا.. أنه بفضل تلك العصابات التى اشتهرت فى ذلك الوقت.. انشئ البوليس الفيدرالى الذى يمكنه متابعة المجرمين الذين ينتقلون من ولاية إلى أخرى بينما

البـــوليس فـى ذلك الوقت لم تكن عنده حـــرية مطاردتـهم.. فاختصاص بوليس كل ولاية ينتهى عند حدودها.. وبعدها يفقد تأثيره وسيطرته على المجرمين الهاربين إلى ولاية أخرى.

●●

ونلاحظ فى فيلم «بونى وكلايد» أن العنف الذى قدمه المخرج «أرثر بن» عنف متعدد الدرجات ففى مشاهد عمليات سطو العصابة على الخزائن والبنوك.. نجد أن العنف أقل بكثير من العنف الذى ساد مشاهد عمليات مطاردة البوليس لهذه العصابات حتى وصلت قمة العنف الدامى فى مشاهد النهاية.

فالعنف عند رجال البوليس أكثر شراسة وضراوة.. بينما عنف عصابة «بونى وكلايد» عنف اقتحام مكان السطو على الخزائن.. دون التعرض للأفراد العاديين.. ولا يخلو الأمر من الطرافة فى كثير من المشاهد.. ففى إحدى عمليات السطو نجد «كلايد» يفرق بين أموال البنك الذى يسطو عليه. وأموال عامل بسيط كان يقف بالصدفة داخل البنك.. أنه لا يمس أموال العامل. ولهذا نجد العامل يعلق بفرح: «لقد كانوا طيبين معى.. سأضع الزهور على قبورهم»!

وفى عمليات أخرى.. يقتحم «كلايد» أحد البنوك فيجد خزائنه خاوية.. فيسحب الصراف معه إلى خارج البنك حيث كانت تقف



«بونى» ليقوم الصراف بشرح الحقيقة لها. ثم يتركه ليعود مندهشا إلى مكان داخل البنك

وهذه التفاصيل الصغيرة التى تعمد المخرج إبرازها. ثم اضفائه جوا من الحيوية والمرح على أفراد العصابة.. بلورت فى النهاية وجهة نظره الاجتماعية حول نشوء العنف ومبرراته.

●●

لعب الممثل الأمريكى «وارن بيتى» دور «كلايد» باقتدار هائل فى الليونة والتعبير والتأثير.. ولا ينكر «وارن بيتى» حماسه لهذا الدور فهو الذى اشترى السيناريو وشارك فى انتاج الفيلم وهو الذى ألح على المخرج «أرثر بن» ليقوم بإخراجه.

وقامت بدور «بونى» الممثلة «فاى دوناواى» فأعطت مذاقا خاصا للدور بما جعلها قريبه جدا من قلوب المشاهدين لدرجة إن ملابسها التى ارتدتها فى هذا الفيلم. أصبحت فيما بعد «موضة» خاصة للنساء.

وشهد هذا الفيلم أيضا احدى البدايات الفنية للمثل «جين هاكمان» الذى لعب فى هذا الفيلم دور «باك» شقيق كلايد.

والممثل «مايكل بولارد» فى دوره المتميز الذى لاينسى «موس» هذا الشاب البدين الأقرب إلى البلاهة وأحد عوامل المرح والحيوية داخل الفيلم والسيناريو كتبه «دايفيد نيومان» و «روبرت بنتون» وشارك أيضا بلمساته الأخيرة كاتب السيناريو «روبرت تاون».

التصوير للفنان «بيرنت جافى» الذى قدم عملا رائعا خصوصا فى مشاهد الحركة البطيئة.

●●

والمخرج «أرثر بن» مولود عام ١٩٢٢ فى «فيلادلفيا».. وقد كان والده يعمل فى اصلاح الساعات.. وقد درس «أرثر بن» فى استوديو الممثل بلوس انجلوس.. وكتب للتليفزيون عام ٣٥ ثلاث مسرحيات.. وأخرج أيضا للمسرح.. وأول فيلم طويل من اخراجه كان عام ٥٨. وكان بعنوان «الأشول».. وحمل هذا الفيلم أولى علامات المخرج فى أسلوبه العنف.. ثم كان فيلمه الثانى عام ٦٢ بعنوان «صانعة المعجزات» عن مسرحية تتناول حياة «هيلين كيلر».

وفى عام ٦٥ كان فيلمه «ميكى وان».. ثم كانت رائعة «المطاردة» عام ٦٦.. وتمثيل مالون براندو وفى هذا الفيلم يؤكد المخرج على أسلوبه السينمائى فى العنف.. وفى العام التالى ٦٧.. كان فيلمه «بونى وكلايد».



كلام من قش

مـا الذى يمكن أن يفعله انسـان وديع مسـالم . يؤمن بـالعـقل والمنطق .. فى مواجـهة مجتمع لا يتعامل إلا بقـوة العضـلات وبمهارة استخدام السلاح ..؟!

إننا أمام حالة نعيشها دائما .. وتتكرر بشكل أو بآخـر .. ولا نجد لها خلاصا إلا بأحد حلين .

أما استسلام العقل .. وانتصار القوة ..!

وإما أن يتـخلى الانسان عن حكمته ووداعته . ليواجه ـ مضطرا ـ العنف بالعنف .. والقوة بالقوة !

وكـلا الحلين أسـوأ من الآخـر .. لأنهـمـا يأتيـان من الاعـتـراف أصل بسيادة العنف الذى أصبح طابعا للحياة .. وواقعا لا يمكن الفرار منه.

وهذا الاعتراف .. هو أبشع ما يدين العصر الحديث .

وفى هذا الفيلم .. يقدم المخرج الأمريكى «سام بكينباه» صورة حقيقية للعنف المفروض علينا .. إنه عنف شديد الوحشية .. أشبه بالوباء الذى ينتشر فى كل مكان !

فهذا الشاب (دايفيد) عالم الرياضيات الذى تفرغ لابحاثه ودراساته العلمية .. لم يعد يحتمل البقاء فى أمريكا حيث العنف منتشر .. فقرر أن يرحل مع زوجته الانجليزية (امى) إلى انجلترا.. وأختار قرية صغيرة فى الريف الانجليزى . واستأجر بيتا، وبدأ يعود إلى أبحاثه فى الرياضيات.

ولكن هذه الراحة والهدوء اللذين كان ينشدهما .. بدأت تتبدد تدريجيا !

فهناك هذان العاملان اللذان استأجرهما لاصلاح بيته .. إنهما لا يكفان عن مراقبته والسخرية من انهماكه الدائم فى حل المعادلات وعندما يسأله أحدهما عن العنف الذى شاهده فى أمريكا.. يبدى عالم الرياضيات ضيقة وأسفه لما يجرى هناك .. فيسالأنه بدهشة وقد استهوتهما السخرية بهذا الإنسان الوديع الذى يهرب من العنف : «هل شاهدت أحد يطعن آخر بسكين» ..، وتتحدد بالنسبة لهما نوعية هذا الرجل .. وتتحدد أكثر نوعية زوجته التى تتصرف بشكل طفولى .. فيختلسان النظر لها .. وتحاول أن تستثيرهما أكثر . فقد استهوتها الفكرة .. ولكنهما يتماديان فى وقاحتهما .. فيسرق أحدهما قطعة من ملابسها الداخلية ، ليعرضها مزهوا على اصدقائه فى

مقهى القرية .. ثم يتسلل أحدهما إلى المنزل ليخنق قطة الزوجة التى تعتز بها . ثم يعلقها فى دولاب ملابسها بغرفة نومها .. وعندما يكشتف الزوج (دايفيد) هذه الجريمة، يغلى الدم فى عروقه ولكن يحاول أن يفوت المسألة حتى لا يتبدد الهدوء الذى يحلم به .. فتعلق زوجته (آمى) بحده، «لقد فعلا هذا ليثبتا لك إنهما قادران على دخول غرفة نومك» !

ويتذرع الزوج بالصبر والحكمة ليقول : ربما فعل هذا .. عابر سبيل .. فأبواب ونوافذ البيت مفتوحة دائما .. ولكن الزوجة تصر على ادانة هذين الشابين وتحاول أن تدفع زوجها للتخلى عن سلبيته ومواجهتهما .. بينما الزوج يبدى عدم موافقته للدخول فى هذه المعارك والتفرغ لابحاثه ومعادلاته الرياضية التى يكتبها على سبورة فى حجرة مكتبه .. فتستثيره الزوجة أكثر كأنها تسخر منه بقولها : «إذا لم تستطع أن تحادثهما .. فأكتب لهما رسالة على سبورتك» !

إنها تقسو عليه بكلماتها حتى يتحرك .. ولكنه لم يأت إلى هنا لكى يورط نفسه فى مشاجرات ويدخل فى دوامة العنف .. لقد جاء إلى هنا كما رد على زوجته التى اتهمته بأنه جاء إلى هنا لأنه لم يجد مكانا آخر يختفى فيه .. فقال لها مصححا .. لقد جئت لأنك أنت التى قلت إننا سنكون سعداء هنا» !

فهذه القرية الانجليزية تعرفها الزوجة .. وكانت لها علاقة عاطفية قبل زواجها . بأحد شبان القرية .. وعندما يطاردها هذا

الشاب ليذكرها بأيامها السابقة .. تتحصن الزوجة بزوجها .. الذى يعرض على هذا الشاب مع ابن عمه .. أن يأتيا إلى المنزل للعمل فى استكمال اصلاحه ومشاركة العاملين الآخرين .. كأنه يحاول أن يأمن جانبهما بمحاولة تشغيلهما واعطائهما أجراً .. ومعاملتهما باحترام !

ولكنهما يقابلان هذه المعاملة .. بمزيد من الاستخفاف واظهار قوتهما الجسدية . وقدتهما على سحقه تماما !

ويفصحان عن هذه المشاعر العدائية ، عندما يطاردانه بسيارة نقل ويحاولان مع زملائهما العاملين الآخرين أن يدفعانه بسيارته إلى الاصطدام .. ولكنه يفلت منهم بمهارة .. بل ويدعوهم إلى تناول كأس على حسابه فى مقهى القرية ! إنه يحاول جاهدا أن يتمالك أعصابه . وأن يقابل هذه العداوة والاستخفاف .. بمزيد من التساهل واثبات حسن النية .. إنه لا يود الاحتكاك .. إنه يعرف إنهم يختبرونه .. وهو يحاول أن يظهر اللامبالاة حتى يفوت عليهم أى فرصة للتعارك واستخدام العنف !

ولكنهم لا يتركونه .. إنهم يستدرجونه لنزهة خلوية لاصطياد البط البرى .. ويقبل هو هذا العرض عن طيب خاطر .. وإن كان يعلن لهم أنه لا يملك سوى بندقية قديمة لا تصلح للصيد فيضحكون من منظر البندقية ويقولون له أن هناك فائضا من البنادق لديهم .

وعندما يذهب معهم إلى رحلة صيد البط .. يضعونه بين الأحراش ممسكا فى ارتباك ببندقية صيد .. ويطلبون منه عدم التحرك والانتظار حتى تظهر أسراب البط .. ثم يختفون من حوله ليقتحم اثنان منهم منزله لاغتصاب زوجته بالتبادل بينهما فى عنف وقسوة ومهانة لا حدود لها !

بينما الزوج (دايفيد) مازال بين الأحراش يصوب بندقيته إلى البط البرى الطائر .. فيصيب احداها .. وعندما يتقدم للامساك بها .. يفاجأ بالدم يغطيها .. فينادى على الرجال الذين أتوا معه .. ولكنه لا يجد أحدا .. ويكتشف أنهم تركوه .. فيمسك البطة الجريحة ، وتلوث يداه بالدماء .. ويصاب بالذعر لمنظر الدماء على يديه .. ويحاول أن يمسحها دون جدوى !

وعندما يعود إلى منزله غاضبا مما حدث له .. مهددا بأنه سيفصل هؤلاء الشبان الأربعة من العمل عنده فى إصلاح المنزل .. تقابله زوجة (آمى) بكل كرامتها المهانة .. وتنفعل فى غضب وهى تقول له : لو كنت واجهتهم بما فعلوه عندما خنقوا القط لما حدث هذا !!

انها تؤنبه على استسلامه لهم .. دون أن تفصح عما جرى لها فى غيابه !

ويدرك هو أنه لابد أن يغير طريقته فى معاملتهم .. ويبدأ فعلا فى تنفيذ قرار فصلهم من العمل عنده .. ويصحب زوجته إلى الكنيسة

وهناك تكتشف الزوجة أن الشابين الذين اغتصباها من ضمن رواد الكنيسة فتتراءى أمام عينيها بشاعة ما فعلاه معها .. ولاتحتمل البقاء وتجرى إلى الخارج ويلحق بها زوجها .. ويستقلان سيارتهما ..

بينما فى القرية تقع أحداث أخرى .. فهناك هذا الشاب الذى يحب ابنه أكثر رجال القرية شراسة وعنفا .. وهذا الأب كان يهدد دائما بأنه لن يسمح بهذه العلاقة .. ولكن ها هو يسمع الآن .. أن ابنته عادت إلى لقاء هذا الشاب .. ويجمع الأب أصدقاءه من أشرس الرجال لمعاقبة هذا الشاب .. ويتفرقون للبحث عن الشاب .. بينما هو مع حبيبته فى لحظة عناق . يفاجأ بأنها تموت بين يديه .. ويصاب الشاب بالذعر لشدة المفاجأة المذهلة .. فيجرى مهرولا إلى الطريق ..

فى هذه اللحظة تأتى سيارة (دايفيد) مع زوجته مندفعة .. فتصدمه .. وتقذف به بعيدا .. ويهبط (دايفيد) ليحمله إلى سيارته ويذهب به إلى منزله .. بينما الزوجة تطلب منه ألا يبقيه فى المنزل .. ولكنه يأمرها ـ لأول مرة يعلو صوته بالأمر أن تصعد إلى غرفتها فى الطابق العلوى من المنزل ..

ويحاول (دايفيد) أن يتصل بالشرطة أو بالطبيب ولكن بلا جدوى . فيتصل أخيرا بمقهى القرية .. ليبلغهم بما حدث .. دون أن يدرى أن الأب قد جند كل أقوياء القرية للعثور على هذا الشاب .. ولكن ها هو يفعل ما يمليه عليه ضميره : وتتوالى



الأحداث سريعة .. إنهم يحاصرون منزله .. مجموعة من أعنف وأشرس الرجال من بينهم هؤلاء الشبان الأربعة الذين كانوا يعملون عنده .. والجميع في حالة هياج وثورة .. بينما هو (دايفيد) يتخلى لأول مرة عن قراره بعدم التورط في أي معارك ؛ أو مشاجرات .. تصبح قضيته الإنسانية أن هذا الشاب المصاب الذى صدمه، داخل بيته .. وعليه بالتالى أن يحميه .. تحاول زوجته (آمى) أن تثنيه عن هذا العزم، وتردد بخوف وهلع «أتركه لهم..» .. يقول لها أنه لن يتركه لهم فهم سيضربونه حتى الموت .. تعلق الزوجة قائلة .. بأن هذا الأمر لا يهمها فى شئ فيرد بسرعة كأنه يؤكد على موقفه

الأخلاقى : «ولكن الأمر يهمنى أنا .. فهذا هو بيتى أنا .. وها أنا أقيم هنا .. ولن أسمح بهذا العنف فى بيتى » ! وتتحدد المسألة بالنسبة له .. أنه يدافع عن وجوده .. وعن احترام بيته .. ويشتد الهجوم عليه من الرجال المجتمعين حول بيته .. ويحكم هو اغلاق كل مداخل البيت . يحاول أحدهم التسلل من النافذة ليطلق كمية من الفئران الضخمة داخل البيت ، حتى يفزعه مع زوجته ..

ويأتى ضابط الشرطة فيحاول تهدئة الموقف .. ولكنهم يقتلونه.. ويزداد الهياج ويشعر (دايفيد) بخطورة ما يحدث .. ويحاول الاتصال بالتليفون مستنجدا بأى قوة بوليسية .. ولكنه ، يكتشف أنهم قطعوا أسلاك التليفون .. ويدأوا فى اشعال النيران وتحطيم زجاج نوافذ البيت .. وتحاول الزوجة (آمى) أن تندفع لتنهى هذه المعركة بأن تفتح باب البيت لهم لكى يأخذوا هذا الشاب .. ولكن زوجها (دايفيد) يسرع إليها ويلوى ذراعها فى عنف لكى يمنعها من فتح الباب ..

ويبدأ الزوج فى تحصين البيت من الداخل .. إنه يشغل عقله لأول مرة فى صنع المصايد والأحبال لمواجهة أى احتمال بغزو البيت .. وبالفعل يستطيع بعضهم أن يتسلل إلى البيت ويحاول المتسلل أن يعتدى على زوجته جنسيا .. وبكل القوة المخزونة والغضب الجامح يمسكه الزوج ويضربه ويحبسه فى احدى الغرف العلوية بالمنزل .. وتتكرر عمليات اقتحام البيت .. ولكن الزوج يصمد فى شجاعة مذهلة لكل هذه المحاولات .. إنه بمفرده أمام



هذه القوة الغاشمة .. إنهم يواجهونه دائما بمحاولة اغتصاب زوجته .. وعندما تتكرر أمامه هذه المحاولة يتحول هذا الزوج المسالم الذي يكره العنف ورؤية الدم .. إلى شخص آخر يجيد استخدام يديه وقوته !

وعندما تفشل محاولات الهجوم عليه .. يتسلل أحدهم ليواجهه في وحشية .. فيأمر زوجته بإحضار بندقيته .. ولكن الرجل المتسلل لا يتركه .. ووسط ارتباك الزوجة وخوفها من البندقية التي حملها لأول مرة .. تجد نفسها تلقائيا تصوب البندقية تجاه هذا الرجل الذي يتعارك مع زوجها .. فترديه قتيلا متلويا وسط دمائه..



ويفاجأ الزوج بما فعلته زوجته .. فيتقدم نحوها بهدوئه ليربت على وجهها بحنان !

لقد استطاع الزوج أن يتخلص من كل الذين حاولوا الهجوم على بيته .. واستطاعت الزوجة أن تمسك بالبندقية وتقتل شخصا ! أشياء كثيرة تغيرت داخلهما .. وعندما يتأكد أنه انتصر عليهم .. يبحث عن نظارته التى تهشم زجاجها .. ثم يحمل هذا الشاب الجريح الذى صدمه .. ليوصله إلى بيته .

فى الطريق يفتح الشاب الجريح عينيه .. ليقول للزوج : «أنا لا أعرف بيتى ..» يجيب الزوج بابتسامة .. «ولا أنا أيضا» !! وتمرق السيارة .. تشق طريقها وسط الظلام .. وينتهى الفيلم ..!

ما هو البيت ؟

هو الأمان .. والخصوصية .. هو الراحة التى يلجأ إليها الإنسان وسط طوفان الأحداث الخارجية ولكن لم يعد «البيت» هكذا .. فى هذا الفيلم .. أو فى الواقع !

وكان المخرج «سام بكينباه» يريد أن يقول لنا .. إن العنف يطارد ضحاياها فى كل مكان .. سواء انتقلوا من قارة إلى أخرى .. أو حتى أغلقوا على أنفسهم أبواب بيوتهم !!

العنف هو جزء من قانون الحياة .. الآن .. وعلينا أن نكون مستعدين لمواجهته ..

لقد أراد هذا الشاب - بطل الفيلم - أن يستخدم عقله وذكاءه ومهارته من أجل التوصل إلى نتائج علمية جديدة .. ولكنه تخلى عن هذه المهمة العلمية .. لكى يواجه العنف .. إنهم اضطروه إلى هذا .. والعيب ليس فيه .. وإنما فيهم .. إنهم كلاب من قش .. ولكن لابد من مواجهتهم فلا يقابل العنف .. غير العنف !!

هكذا يبلغنا الرسالة أو «النصيحة» هذا المخرج الأمريكى «سام بكينباه» الذى قدم للشاشة أكثر الأفلام عنفا وشراسة وتوحشا .. وهو فيلم «الصحبة المتوحشة» عام ٦٩ من تمثيل شارلتون هيستون وريتشارد هاريس ..

والمخرج «سام بكينباه» واحد من جيل مخرجى التليفزيون الأمريكى .. الذى قدم للشاشة الصغيرة عدة مسلسلات عن الغرب

الأمريكى .. وكان أول أفلامه السينمائية الطويلة «رفاق الموت» عام ١٩٦١ .. أما فيلم «كلاب من قش» فهو الفيلم الثامن فى قائمة أعماله السينمائية وقد ظهر عام ١٩٧١ .

●●

والمخرج «سام بكينباه» ولد فى كاليفورنيا عام ١٩٢٦ .. وقد اشترى جده لأبيه جبلا عام ١٨٦٨ وأطلق عليه اسم «بكينباه» .. ولهذا يحمل المخرج اسم الجبل .. ويحمل أيضا فى أعماقه وذكرياته كل مغامرات الغرب الأمريكى التى أبدع فيما بعد فى تقديمها للشاشة . سواء فى السيناريوهات التى كتبها لأفلام لم يخرجها ، أو الأفلام التى أخرجها .. وفى فيلم «كلاب من قش» ينتقل من أمريكا إلى انجلترا .. ليصور فيلمه فى قرية بغرب انجلترا عن رواية للكاتب «جوردن م . ويليامز» صدرت بعنوان (حصار مزرعة ترنشر) وهو اسم المزرعة التى دارت فيها حوادث الرواية .. واشترك المخرج مع «دايفيد . ز . جومان» فى كتابة السيناريو .

وتظهر براعة المخرج فى اختيار ممثليه : «داستين هوفمان» فى دور الزوج عالم الرياضيات .. والممثلة الانجليزية «سوزان جورج» فى دور الزوجة . مع مجموعة من الممثلين الانجليز فى أدوار أهالى القرية .

ويقدم المخرج مجتمع القرية التى تبدو هادئة وساكنة .. ولكنها تغلى من الداخل بعنف وشراسة شبابها .

ويتصاعد المخرج بمشاهد العنف تدريجيا حتى يصل إلى مشاهدة النهاية إنه يبدأ بالنوايا الساخرة والرغبة فى التحدى عند هؤلاء الشبان فى هذه القرية .. ثم يتصاعد إلى مشاهد اغتصاب

الزوجـة مع القطـع المتـبـادل مع مـشـاهد الزوج وهو يصطاد البط وتتلوث يداه بالدماء .. وأصبح هذا المشهد بداية يقظة هذا الرجل المسالم إلى حقيقة العنف حتى يصبح هذا العنف هو المقابل الوحيد لمواجهة الاعتداء عليه وعلى بيته .. وهنا يصل المخرج إلى قمة مشاهد العنف وأطولها فى تاريخ السينما .. ويستخدم المخرج كل العناصر الفنية التى تحقق معنى الهجمة الوحشية على بيت هذا الرجل المسالم ، ويلجأ المخرج إلى أسلوب الحركة البطيئة فى الصورة، ليتيح للمتفرج مشاهدة كل تفاصيل الحركة العنيفة، وقد برع المصور (جون كوكيلون) فى تنفيذ هذه اللقطات .. حتى بدت مكونات الصورة وكأنها عالم بأكمله ينهار.

ولقد وقفت أجهزة الرقابة فى دول كثيرة ضد التصريح بعرض هذا الفيلم بسبب مشاهد العنف التى تضمنها .. ولكن هذا لم يمنع بالطبع من قيام الأصوات العاقلة المؤمنة بفن السينما للدفاع عن هذا الفيلم باعتبار أن العنف الموجود فى الواقع .. أبشع بكثير مما قدمه هذا الفيلم !



بورجوازى .. صغير .. صغير

الفقراء غير الأغنياء .. فى أسلوب معاملتهم للحياة .

وغيرهم جميعا .. أفراد الطبقة المتوسطة !

فأفراد الطبقة المتوسطة فى معركة مستمرة حتى لا يهبطوا إلى مستوى الفقراء .. وفى نفس الوقت حتى يصعدوا إلى طبقة الأغنياء !!

إنهم الطبقة المذبذبة .. المشغولة دائما بمصالحها .. وانتزاع ما يمكن انتزاعه لتحقيق طموحها !

ومن هنا تصبح المعركة أشرس .. ومليئة بالحيل والتوتر .. والعنف أيضا !!

وهذا الفيلم يأتى إلينا من ايطاليا .. حيث المشاعر الساخنة .. والدماء الحارة .. وملامح سكان البحر الأبيض المتوسط .. انهم جيراننا .. ولهذا تشعر بالاقتراب الشديد من أبطال هذا الفيلم ..

وتكاد تشعر انك قد التقيت بهم من قبل .. أو سمعت عنهم على الأقل !

عائلة متوسطة الحال .. أب وأم وأبنهم الوحيد .. وهذه العائلة تحاول أن تنتزع حقها فى الحياة بمختلف الأساليب .. وتعيش على أمل أن يتحقق حلمها .

ومن خلال هذه العائلة .. يعرض الفيلم، داخل الطبقة المتوسطة، طبقة صغار الموظفين وأحلامهم فى تحقيق الأمن لأنفسهم .. والاحتفاظ بالمكاسب الصغيرة وتنميتها بكل الطرق والأساليب وكيف تصبح قضية حياتهم أن يثبتوا وجودهم .. وأن يتفردوا وسط المجموع الهائل من أفراد هذه الطبقة.

ومع هذه العائلة نعيش ساعتين :

الساعة الأولى مليئة بالضحك والسخرية والمفارقات المثيرة التى يبدع المخرج فى تأكيدها فى كل لحظة .. حتى ينتقل إلى الجزء الثانى من الفيلم .. أو الساعة الثانية .. حيث نعيش المأساة المفجعة التى تتعرض لها هذه العائلة .. وبنفس البراعة ينقلنا المخرج إلى جو من الحزن والعنف والدم.

وكأنما المخرج الايطالى (ماريو مونشيللى) يغرز سكينة داخل هذه الطبقة المتوسطة. ليخرج أحشاءها ويعرى كل ما فى داخلها من طموح .. وعنف !

والفيلم يحمل عنوان (بورجوازى .. صغير .. صغير) !

●●

يبدأ الفيلم .. والأب والابن فى رحلة على شاطئ البحر ، لاصطياد السمك ، الأب ممتلئ بالحيوية والمرح ، لا يكف عن الكلام والحركة ، يقترب عمره من نهاية الخمسينيات.

الابن فى العشرين من عمره، مكتنز الجسد، يبدو عليه حسن التغذية. وبلاهة من ليس له أية خبرة بالحياة .. نفهم من الحوار أن الابن قد حصل أخيرا على شهادة اتمام الدراسة الجامعية. والأب يعده بأن يسعى له لكى يحصل على وظيفة محاسب فى الشركة التى يعمل بها، والأب لا يكف على إلقاء نصائحه .. فهو الخبير بالحياة، والذى يعرف أسباب النجاح فى العمل .. يقول لأبنه ، (لا تفكر إلا فى نفسك .. لا تهتم بالآخرين إلا بالقدر الذى تحصل منه على فائدة .. اطاعة الرؤساء واجب مقدس .. ابتسم فى وجههم دائما .. ولا تنس أن تنحنى أمام كبار رؤسائك .. أن الرؤساء دائما يحبون من يحترمهم، ويقدرون دائما من يشعرهم بأنهم أعظم وأذكى الجميع) !

يستمع الابن إلى هذه النصائح وتبدو على نظراته البلاهة والسذاجة. يقول له الأب كأنه ينبهه إلى خبرته فى الحياة : (أنا أكبر منك .. وأعرف الكثير من أسرار الحياة) !

ترتسم على وجه الابن كل علامات الطاعة والرضاء .. ولكنه فجأة يصيح مهللا فقد اصطادت سنارته ، سمكة كبيرة .. يسرع إليه الاب ويساعده فى جذب السنارة .. ثم يسحب السمكة من رأسها ، ولا يكف الأب عن تلقين ابنه دراسا جديدا فى تخليص السمكة من السنارة .. وبمنتهى العنف يمسك الأب بالسمكة ويدق رأسها على أحد الصخور . حتى تتفتت الرأس تماما . ثم يلقى بالسمكة فى سلة .. وينظر لابنه فخورا بهذا «الصيد» .. ويتحرك بكل الثقة إلى سيارته الصغيرة . ويتبعه الابن .. ليصلا إلى الكوخ الصغير الذى تمتلكه العائلة ، على شاطئ البحر .. وينهمك الأب فى طهى السمكة، وفى الاسترسال فى نصائحه وتعليماته إلى ابنه : (لا تحاول أن تبتسم كثيرا .. أو تبدو سعيدا دائما أمام زملائك .. حتى لا يحسدوك ولا تدخر نقودك فى البنك . فالبنوك معرضة دائما لحوادث السطو) . سيل من النصائح والتعليمات !

والابن يستمع ولا يعلق .. والأب فخورا جدا بنفسه . وبكنوز نصائحه !

●●

يعودان إلى البيت .. نجد الأم وحيدة ، جالسة أمام التليفزيون تتابع إحدى التمثيليات الأم يبدو عليها الطيبة والحنان الزائد .. ترحب بعودتهما .. ولكن الابن يسرع إلى التليفزيون ليحوله إلى قناة تذيع مباراة كرة قدم .. تعترض الأم قليلا .. وتعطى ظهرها

للتليفزيون وتمسك باحدى الجرائد .. الأب يواصل نصائحه .. والابن مستغرق تماما مع مباراة الكرة !

فى الصباح .. يخرج الأب مسرعا للحاق بموعد بداية العمل فى الشركة .. يتخطى بسيارته الصغيرة جميع السيارات .. ويصعد على الرصيف ويدخل فى شوارع جانبية .. ولا يأبه بكل كلمات التوبيخ والشتائم من أصحاب السيارات الأخرى حتى يصل إلى موقف السيارات المواجه لمبنى الشركة .. ويسرع فى حركة خاطفة، ليركن سيارته، فى اثناء استعداد شخص آخر يحاول أن يركن سيارته فى نفس المكان .. ينفجر صاحب السيارة فى توبيخه .. ولكنه لا يهتم .. فمصلحته الشخصية أهم من كل الاعتبارات الأخرى.

يصل إلى مقر الشركة .. فيجد موظف الاستقبال يمنعه من الصعود إلى مكتبه لأنه تأخر دقيقتين عن ميعاد بدء العمل .. يثور وينفجر فى تعديد أفضاله على الشركة ، (لقد خدمت الشركة ثلاثين عاما .. حملت كل العمل فوق أكتافى حتى تزدهر الشركة وتتعدد انجازاتها .. ثم بعد كل هذا .. أمنع من الدخول لأنى تأخرت دقيقتين) ؟!

موظف الاستقبال يرفض التسامح فى التأخير .. يحاول أن يستعطفه .. ولكن لا أحد يلتفت إليه .. يخرج من مبنى الشركة مهزوما . غاضبا .



فى اليوم التالى يبكر بالذهاب إلى مكتبه .. المكتب مزدحم بالملفات والأوراق .. يتحدث إلى زميله فى الغرفة .. نسمع صوت زميله ولكننا لا نراه .. فهو مختفٍ وراء تلال الملفات والأوراق.

يتكلم بفخر .. أن مدة خدمته فى الشركة أوشكت على الانتهاء. وإنه سيَحال على المعاش وهو سعيد جدا لأن ابنه قد تخرج حديثا.. وإنه سيحاول أن يجد له عملا فى هذه الشركة .. وإن كان فى حيرة كيف يتوسط لابنه للحصول على وظيفة هنا.

ينصحه الموظف المختفى وراء الأوراق .. أن يفتح الموضوع مع رئيسه المباشر.



تعجبه الفكرة .. يعدل ملابسه ويضبط ربطة عنقه .. ويدق باب رئيسه المباشر . رئيسه جالس على مكتبه بلا عمل .. يضع أمامه مرآة .. ومستغرق تماما فى تمشيط شعره الذى يتساقط منه القشر .. زجاج المكتب امتلأ بالقشر .. الذى يتحسسه بيده .. ويصيح فى دهشة وفرح لحجم القشر «هل رأيت فى حياتك قشرة بهذا الحجم » ؟! .. ثم يخرج من درج مكتبه علبة فازلين ويدهن بها شعره !

يجلس أمامه الموظف يحاول أن ينافقه بكل الطرق ، حتى إنه يبدى اعجابه بقشر الشعر الذى يتساقط من رأس رئيسه !! وأخيرا

ينتهز فرصة صمت. ليفصح عن رغبته فى تعيين ابنه فى الشركة ويطلب مساعدة رئيسه ووساطته .

رئيسه يتخذ هيبة الرجل المسئول .. ويقول أن مسألة التعيين، معقدة جدا لأنها تخضع لامتحانات ومسابقات.

ينافقه الموظف أكثر .. ويقول له : «لو رأيت ابنى لما ترددت لحظة فى مساعدتى .. فهو يشبهنى جدا» .. ويسرعة يستأذن ويفتح الباب وينادى على ابنه الذى كان واقفا فى الخارج .. يتقدم الابن فى طاعة وخشوع .. ويمد يده لمصافحة رئيس والده .. فيصافحه الرئيس بيد مليئة بالفازلين، يرتبك الابن قليلا .. ولكن والده ينظر إليه فى إعجاب وفخر .. ويقول : «إنه سيكون أمهر موظفى الشركة .. فقط لو تكرمت بمساعدتنا» .. يحاول الرئيس انهاء المقابلة .. فيطلب من الأب .. أن يكتب له مذكرة يشرح فيها طلبه حتى يقدمها للمدير العامة للشركة.

يفرح الأب بهذا الاقتراح .. ويحاول أن يقبل يد رئيسه امتنانا.، ثم يسحب ابنه ويخرج من المكتب وقد امتلأ بالنشوة والفخر .. يحاول أن يستوقف الموظفين الذين يمرون عبر ردهات الشركة ليقدم لهم ابنه .. وينتظر خروج أى موظف كبير من مكتبه حتى يسرع إليه ليقدم له ابنه .. يتجاهلونه .. ولكنه لا يأبه لشئ .. يهمس فى أذن ابنه بثقة شديدة «سأقدمك لكل مسئول فى الشركة.. أن أهم شئ .. أن تعرف رؤساءك .. وأن يعرفونك» .

يخضع الابن تماما لتعليمات أبيه .. ويحاول الانصراف ولكن

الأب يشير إليه أن يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف ، يسأله ابنه عن السبب .. فيقول الأب : «أريد أن أرى كيف تسير» !

يتحرك الابن إلى الأمام وإلى الخلف .. وتبدو على الأب علامات السعادة والزهو .. ويفرك يديه من فرط الاعجاب بابنه !

●●

الأب فى البيت .. يسهر يكتب المذكرة التى اقترحها رئيسه لتساعده في الوساطة لتعيين ابنه .. يحاول الأب أن يختار أكثر العبارات تأثيرا .. تجلس بجواره زوجته ، التى تنظر له بحنان وحب وتقدم له القهوة. بينما الابن نائم فى سريره وكأن الأمر لا يخصه !

فى الصباح يحمل الأب المذكرة التى كتبها، وزجاجة نبيذ فاخرة ويدق باب رئيسه الذى يأخذ الزجاجة بسرعة .. ويتصفح المذكرة فيجد أنها مكتوبة فى اثنتى عشرة صفحة .. ينزعج الرئيس من كل هذا الكلام المكتوب .. ولكن الأب يعلق : «أنها مجرد مذكرة مختصرة» !! وينحنى على المكتب فى محاولة لتقبيل يد رئيسه .. ويردد فى انكسار شديد : «أرجوك ساعدنى» !

يفتح رئيسه درج مكتبه ويخرج مجموعة من الكتب .. ويقدمها إلى الأب .. ويهمس فى أذنه وكأنه يفضى إليه بسر خطير : «إذا أردت أن يتحقق طلبك فما عليك إلا أن تقرأ كل هذه الكتب وتدرسها جيدا . ثم نلتقى !

الأب يلهف الكتب بسرعة .. ولكن رئيسه يوصيه أن يتكتم الأمر تماماً !

يلتزم الأب بالتعليمات ، ويبدو عليه الاهتمام والجدية، ويخرج من المكتب مسرعاً !!

●●

الأب فى البيت .. يسهر على قراءة الكتب.

الكتب كلها عن «الماسونية» . (الماسونية جماعة دينية ارهابية حظرت نشاطها كثير من الدول وطاردت أعضاءها .. ولكنهم يعاودون نشاطهم فى السر).

الزوجة تنزعج من هذه الكتب التى يقرؤها زوجها .. وتقول له بخوف : «أن القسيس قال لهم أن هذه الكتب ضد الدين وحذرهم منها» .. وترجوه ألا يستمر فى قراءتها . يثور الزوج ويقول أنه يدرك ما يفعله تماما .. وأنه لا بد أن ينتهى من قراءة كل هذه الكتب فى هذه الليلة . تستعطفه الزوجة ألا يفعل هذا .. ولكنه بعصبية واضحة يقول لها أنه يفعل هذا من أجل ابنهم !

الابن نائم فى سريره !

الأب يواصل القراءة .. والزوجة بجواره ترتعد خوفا وقلقا !

فى الصباح يحمل الأب كومة من الكتب ويسرع إلى رئيسه ..



ويغلق الباب عليهما .. ثم يقول له فى انضباط تام .. لقد قرأت كل هذه الكتب .. إنها عظيمة جداً ،!!

يهمس رئيسه فى أذنه .. بأن الخطوة التالية هى مقابلة «الزعيم» ليستسمحه فى أن يقبله عضوا فى الجماعة .. وإذا وافق الزعيم .. فإن مشكلته ستحل .. وسيحصل على اسئلة الامتحان التى ستفتح أبواب التعيين أمام ابنه !!

يوافق الأب على كل التعليمات التى رسمها له رئيسه .. ويأخذ منه عنوان مقر الجماعة.

الأب بينه وبين نفسه يبدو عليه الخوف من أغضاب الله والدين .. ولكنه يجد العذر لنفسه بأنه يفعل هذا من أجل ابنه . ولا يجد مكانا للاعتراف بذنبه وطلب المغفرة إلا أن يدخل دورة المياه فى

منزله ويغلق الباب على نفسه .. ويصلى .. ثم يشد السيفون !!
ويحاول أن يرسم على وجهه علامات الهدوء .. فهو يدرك أن
زوجته تراقبه بقلق وخوف .. يخرج من دورة المياه .. يبتسم
لزوجته كأنه يطمئنها .. ثم يمضى مسرعا خارج المنزل .. قاصدا
العنوان الذى حدده رئيسه ليلتقى فيه بزعيم جماعة الماسونية !

●●

ويصل المخرج إلى قمة الكوميديا فى الفيلم .. حينما يقدم
مشاهد انضمام هذا الأب إلى جماعة الماسونية .. والطقوس المتبعة
للانضمام!

مشاهد سريعة ساخرة جدا .. كأننا أمام لوحات كاريكاتير لأبرع
فنانى الكاريكاتير فى العالم .. نرى الأب وقد عصبوا عينيه ،
ورئيسه فى العمل يرشده إلى الخطوات الواجب اتباعها. وكلمة السر
التى يجب أن يخاطب بها زعيم الجماعة .. وهى : «أريد أن أرى
النور» .. ثم تشكيل من أفراد الجماعة يرتدون دروعا حديدية
تغطى أجسامهم تماما .. والزعيم جالس فوق منصة عالية ..
وعبارات غامضة تتردد .. وأصوات طرق على النحاس .. ثم
يأتى امتحان الزعيم له .. ليسأله عما قرأه فى الكتب الخاصة
بهم.. فيجيب الأب بخوف وبسرعة شديدة .. ويصيح بين وقت
وآخر ، «أريد أن أرى النور» فيأمر الزعيم برفع العصابة عن
عينيه.. ثم يأذن له بالنور ، فيفاجأ بكشاف كهربائى ضخم مسلط



على وجهه .. ويصفق الجميع ويهنئونه بالنجاح .. فيسقط على الأرض من شدة وهج الكشاف . ورعب ما يحدث له .. وتنتهى الطقوس بموافقة الزعيم على انضمامه معهم .. ويخلع عليه اسما جديدا .. ويتقدم أحدهم ليلبسه الدرع الحديدى .. فيسقط مرة أخرى على الأرض من ثقل هذا الدرع . ولكنه يرفعونه مهللين .. ويختفى الزعيم !

لقد حصل على عضوية الجماعة .

وحصل أيضا ـ وهذا هو المهم ـ على أسئلة الامتحان لابنه !!

ويعود إلى البيت هادئا ، وكأنه نسى تماما ما حدث له .. ويبدأ فى مراجعة أسئلة الامتحان مع ابنه .. ويدلله بحنان زائد ، والزوجة ترعاهما هما الاثنان، حتى ينام الابن، فيحمله إلى سريره ويغطيه .. وينظر لزوجته بكل الحب .. كأنه أدى مهمته تماما .. ويطلب منه برقة شديدة أن تصنع لهما قدحين من القهوة .. ويجلسان معا يحتسيان القهوة .. وهو يشكرها على رعايتها وحنانها.

مشهد غاية فى العذوبة .. وكأنه تتويج لرحلة عمرهما. وكفاحهما من أجل هذا الابن.

عند الفجر . يستيقظ الأب .. يفتح نوافذ البيت ، زوجته تقف بجواره ، كأنهما يحرسان هذا النهار الذى سيشهد امتحان ابنهما .. يوقظان الابن .. وتسرع الزوجة لاعداد ملابسه .. ثم تسرع

خارجة من البيت .. لنراها داخل احدى الكنائس .. تصلى راكعة .. وفى عينيها كل الرجاء والأمل .. تأخذ بعض حبات البخور وتهرع إلى البيت لتضع حبات البخور فى جيب ابنها، تقبله .. ثم تودعه بدعواتها.

يخرج الأب مع ابنه .. سعيدا متفائلا .. ويدعوه لوجبة افطار فاخرة فى أحد المطاعم .. ثم يستقلان الترام المتجه إلى مقر الامتحان . فما زال متسعا من الوقت حتى موعد الامتحان، ولا داعى لاستخدام سيارته .. إنه يريد أن يركز تفكيره كله فى ابنه. وأن يملأ عينيه منه طول الوقت!

فى الترام فتاة جميلة تجلس بمفردها. الابن يختلس النظر إليها.. الأب تبدو عليه السعادة والزهو، فقد نضج ابنه وأصبح يتأمل الجميلات !! يصل الترام إلى المحطة المقصودة .. ينزلان .. الوقت مبكر جدا .. الشوارع شبه خالية .. الأب يعدد مزايا التبكير.. ويسير بجوار ابنه فى حب واعزاز.

فجأة .. ينطلق صراخ . وصوت طلقات نارية.

الأب ينظر حواليه .. يجد شابا صغيرا بمسدس .. ويشير إلى رفاقه أن يسرعوا ويختفى داخل سيارة تنتظره . ويهرب بسرعة من المكان.

الأب يلتفت محدثا ابنه .. فلا يجده بجواره .. إنما يجده جثة هامدة على الأرض!!

كل شئ حدث فجأة .. وكأنه عبث الاقدار .. أن تتوافق تماما لحظة هجوم مسلح على الشركة لسرقة خزينتها .. وانطلاق رصاصة طائشة تصيب الابن .. وتقتله فى الحال !!

●●

كل شئ ينهار. الماضى .. والحاضر .. والمستقبل .. الحلم .. والأمنية .. والفرحة.

قتل الابن فى لحظة .. وانتهى كل شئ .. وبقى الألم والحزن !

الأم تصاب بالشلل .. وتفقد النطق .. مكومة على كرسيها تبكى فى صمت .. الزوج بجانبها يحاول أن يخفف عنها .. يقول لها «لاتفكرى كثيرا .. صلى إلى الله ..» يحاول اطعامها .. يعاملها بمنتهى الحب والحنان .. والبيت ساكن تماما .. المطبخ الذى كان يموج بالحيوية . أصبح متوحشا، مهملا .. وهى فى حالة ذهول دائم والدموع تنساب من عينيها فى حزن فاجع !.

●●

الأب يستدعونه إلى قسم الشرطة . ليعرضوا عليه طابورا من أصحاب السوابق الاجرامية .. لعله يتعرف على قاتل ابنه .. ولكنه لا يعثر على القاتل بينهم .

يمضى فى طريقه ، رابط الجأش، متماسك تماما. يذهب إلى المقبرة التى تضم صناديق الموتى الذين لا يجدون مكانا للدفن ..

يبحث عن صندوق ابنه .. يقف أمامه فى ذهول .. المكان كله غريب وكأنه دكان أحذية ، صناديق الموتى مرصوصة على الأرفف حتى تصل إلى السقف ، وأهالى الموتى يبحثون عن موتاهم بين الأرفف ويشعلون الشموع ، ويلقون الزهور على صناديقهم. وغالبا ما تتساقط الزهور بين الأرفف !

الأب يتحدث إلى المسئول عن هذه المقبرة .. ويتوسل إليه أن يجد مكانا ليدفن فيه ابنه .. فيرد المسئول قائلا : «أن هناك قوائم انتظار طويلة .. ولا يستطيع أن يعده الآن» !!

صوت ضجة عالية . نرى ونشا صغيرا يحمل صندوقا جديدا لأحد الموتى. عامل العربة يخترق طريقه وسط زوار المقبرة .. ثم يتوقف أمام أحد الأرفف يرفع الصندوق بالونش محاولا أن يجد له مكانا فى أعلى رف .. ولكن الصندوق يسقط .. ويسقط معه عدة صناديق أخرى .. يمتلئ المكان بالتراب .. ويجرى الزوار فى هلع وخوف يكتمون أنفاسهم من الرائحة التى انبعثت من الصناديق !

يعود الأب إلى البيت ، يجد زوجته على مقعدها والدموع تملأ وجهها .. يجلس بجوارها يحكى لها زيارته لمقبرة ابنهما .. وكيف أن المقبرة فى مكان جميل تشرق عليه الشمس وتنبت حوله الزهور من كل جانب ، زهور ملونة جميلة !! يربت على كتفها ويقول لها: «عندما تتماثلين للشفاء .. سنذهب سويا لزيارته» !

يتحجر وجهها بالحزن والألم .. يعد لها الطعام ويحاول اطعامها .. وينام بجوارها على المقعد.

الباب يدق فى الصباح. انهم يستدعونه من جديد فى قسم الشرطة ليعرضوا عليه قائمة أخرى من المشتبه فيهم .!

يذهب إلى هناك .. يمر أمامه طابور جديد من أصحاب السوابق .. يتعرف على القاتل .. ولكنه لا يتكلم ولا يشير إليه !!

إنه يدبر خطة انتقام خاصة يقوم بها .. يتتبع القاتل، وهو شاب صغير السن، ويمضى وراءه من مكان إلى آخر .. وباعصاب باردة تماما يجلس فى سيارته، منتظرا خروج القاتل من أحد المنازل، ويشغل نفسه بحل الكلمات المتقاطعة !! حتى يخرج القاتل ويتجه إلى سيارته ويحاول تشغيلها ولكنها لا تستجيب له .. فيفتح غطاء الموتور محاولا البحث عن العطل .. وفى هذه اللحظة يسرع الأب ويفاجئه من الخلف بضربة عنيفة بآلة حديدية على رأسه . فيسقط الشاب مغشيا عليه .. ويحمله الأب بسرعة داخل سيارته ويمضى به !

يتصرف بهدوء شديد وبثبات أعصاب وكأنه حسب حساب كل شئ .. ولم يعد هناك ما يقلقه !!

يصل إلى الكوخ الريفى الذى رأيناه فى أول الفيلم .. يحمل القاتل الغارق فى دمائه .. ويضعه على مقعد فى منتصف الكوخ.. ويربطه بالأسلاك ويحشو فمه بالقطن .. يخرج بسيارته إلى أقرب مكان مأهول بالسكان .. ويدخل إلى أحد المحلات التجارية ليشترى طعاما وزجاجة نبيذ ولفة كبيرة من القطن والشاش..

يعود إلى الكوخ الريفى، القاتل أفاق من غيبوبته.. يتقدم منه الأب. يحاول اطعامه وتضميد جراحه!! القاتل ينظر إلى الأب فى ذهول ويحاول أن يفك قيده.. فيعاجله الأب بضربة عنيفة بألة حديدية فوق رأسه.. فتنفجر الدماء وتغرق وجهه. ويروح فى اغماءة طويلة!!

الأب يجلس أمامه على المائدة.. يتأمله فى هدوء.. ويتناول طعامه ويشرب كأسا من النبيذ!!

يطلع النهار عليه.. وهو نائم على كرسيه أمام القاتل.. يتأكد من أن القاتل مازال حيا.. ويتأكد من سلامة الأسلاك التى أوثقه بها.. ثم يخرج من الكوخ عائدا إلى بيته فيجد زوجته على مقعدها.. يرتمى على كتفها.. ويبكى فى مرارة وهو يقول لها «أرجوك ساعدينى».

الزوجة تنظر إليه فى شفقة ونهر الدموع ينساب من عينيها!!

يذهب إلى عمله فى الشركة.. فيواجهونه بالأسئلة عن سر انقطاعه عن العمل.. فيتعلل بمرض زوجته وملازمته لها.. ثم يستأذن للانصراف على أن يستكمل المطلوب منه فى المنزل.

يحمل الأوراق والملفات.. وينطلق إلى الكوخ الريفى حيث يعتقل القاتل.

لقد أصبحت لذته الخاصة.. أن يواصل تعذيبه لقاتل ابنه!!

إنه يضمد جراحه ويطعمه.. ثم يضربه من جديد ويستمتع بنظرات الألم والرعب التى تنطق من عينيه!!

وعندما يحاول الشاب القاتل أن يتخلص من الأسلاك التى تقيده.. يصرخ فيه الأب بمنتهى العنف والتوسل «أنت تريد أن تهرب منى.. ولكنى لن أتركك أبدا.. ستظل تعيش معى هكذا» ؟!!

لقد أصبح الأب يجلس أمام القاتل.. أكثر مما يجلس مع زوجته.. وحينما أراد أن تشاركه زوجته هذه «المتعة».. ذهب إليها وحملها بمقعدها إلى هذا الكوخ الريفى.. وقدمها إلى القاتل بقوله.. «أنظر أن زوجتى مرضت بسببك».. ويحاول القاتل أن يفتح عينيه وسط بركة الدماء التى تغطى رأسه.. فيصرخ فيه الزوج «ما أسمك..» وينقض عليه الزوج يفتش جيوبه.. فيجد بعض الأوراق وكمية هائلة من النقود.. القاتل يحاول أن يتملص من قيوده.. فيعالجه بضربة جديدة أقوى وأشرس!!

ويترك زوجته أمام القاتل.. ويستأذن منها لدقائق ليحضر طعاما من الخارج.

مشهد الزوجة الأم.. أمام قاتل ابنها.. مشهد لا يمكن أن يتكرر فى تاريخ السينما.. الاثنان لا يستطيعان الكلام.. الأم مشلولة تبكى دائما.. والقاتل مكمم الفم وغارق فى دمائه.. والمواجهة بينهما صامتة ومرعبة!

يعود الزوج من الخارج.. يطمئن على وجود القاتل.. ويمسح

وجهه بقطعة قطن مبللة.. ولكنه يكتشف أنه قد مات!!.. فيصرخ بفزع حقيقي: (لماذا تموت الآن).. ويبكي بشدة كما لم يبك على مقتل ابنه.. ويرتمي على كتف زوجته حزينا!

ثم ينهض مسرعا ويسحب جثة القاتل ويجرجرها على الأرض حتى يخرج بها من الكوخ.. ويحفر حفرة عميقة في الأرض الفضاء المجاورة الكوخ. ثم يواري الجثة ويهيل عليها التراب.. وزوجته أمامه تشهد المنظر ووجهها ينطق بالذهول والحزن.. وبعد أن ينتهي من مهمته يأخذ زوجته ويعود إلى بيته!!

●●

يحتفلون به في الشركة لبلوغه سن الاحالة على المعاش.. يتقدم رئيسه ليعدد خدماته التي قدمها للشركة منذ بدأ العمل فيها عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٧٧.. ويمنحه ميدالية تذكارية لجهوده المخلصة.. ويحاول هو أن يعقب بكلمة.. ولكنه يجد جميع زملائه مشغولين بالطعام والشراب وبأحاديثهم الخاصة.. فينزوي في ركن القاعة وحيدا!

يعود إلى منزله فيجده ساكنا موحشا.. يحكي لزوجته ماحدث له في حفلة التكريم.. يتكلم.. وفجأة ينظر إلى زوجته فيجدها قد ماتت!!

كل شئ قد انتهى.. وأصبح وحيدا تماما!!

●●

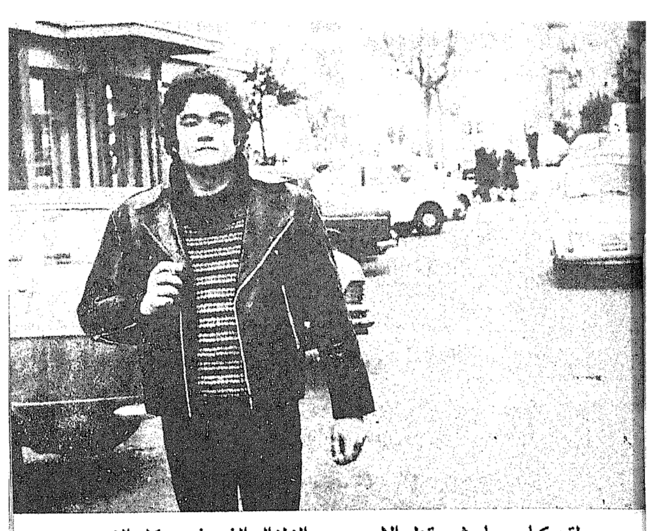


يخـرج إلى الشـارع.. يجلس فى إحـدى الحـدائق يراقب المارة كأنه ينعى حياته.. يسير فى ذهول.. يصطدم بشاب.. يثور الشاب ويشتمه «لو لم تكن رجلا عجوزا.. لضربتك».

تبرق عيناه بالانفعال.. وكأنما عادت إليه الحياة.. يركب سيارته ويتعقب هذا الشاب.. ينعكس على زجاج سيارته منظر الطريق وصفوف المساكن على الجانبين.. فيبدو الطريق وكأنه مسدود.. ولكنه يمضى متعقبا الشاب الذى أهانه!

وينتهى الفيلم على وجهه وقد امتلأ بالتحفز والانتقام

وكأن الفيلم يريد أن يوحى لنا.. بأن هذا الرجل الذى فقد كل مبررات بقائه على قيد الحياة.. وجد أخيرا مبررا جديدا للاستمرار.. أن يكرر نفس اللعبة مع هذا الشاب.. أن يواصل انتقامه اللانهائى!



لقد كان حادث مقتل الابن.. هو الزلزال الذى فجر كل الشر الموجود بداخله..

رأيناه فى النصف الأول من الفيلم يحاول أن يشق طريقه ليحقق حلمه بكل الوسائل.. بالنفاق.. ورشوة رؤسائه.. وتغليف مشاعره الحقيقية بالابتسام الدائم وطاعة كبار الموظفين.. وأصبح هذا الأسلوب الانتهازى هو دستوره فى الحياة، الذى بدأ يلقنه لابنه حتى يخوض به معركة البقاء.. ولكن الابن يسقط منه فى الطريق، مقتولا.. فيصب كل انتقامه فى قاتل ابنه.. الذى كان يتلذذ بتعذيبه.. وبالسيطرة على حياته.. وعندما مات القاتل.. فوجئ هو بأنه فقد كل أسلحته.. أصبح عاجزاً لا دور له.. ولا أهمية لحياته!

أما الام فقد انتهت تماما بعد وفاة أبنها.. فلم يعد هناك أى دافع لاستمرارها فى الحياة!!

يقول المخرج الايطالى (ماريو مونشيللى) الذى أبدع هذا الفيلم.. بالرغم من أن الجزء الثانى من الفيلم ملئ بالعنف والدم والقسوة.. إلا أننى أرى أن الجزء الأول من الفيلم أكثر عنفا وقسوة.. إنه عنف أسلوب الحياة لهذا الموظف الذى يشق طريقه بمنتهى الانتهازية وحب الذات.. ثم محاولاته المستمرة لأن يشكل حياة وتفكير ابنه بنفس الطريقة.. ألا يثق فى أحد.. أن يفكر فى مصلحته فقط.. أن يكره زملاءه.. وأن يركع أمام رؤسائه.. هذه الأفكار تمثل فى رأى منتهى العنف».

وما يقصده المخرج من اختياره لبطل الفيلم.. رجل من الطبقة المتوسطة – أو حسب عنوان فيلمه «بورجوازى صغير.. صغير» - هو الإدانة الكاملة لأسلوب الحياة الذى يجعل بعض أفراد هذه الطبقة.. يكرسون كل جهدهم فى حماية أنفسهم والدفاع عن مكاسبهم الخاصة، واعتبار أن كل الآخرين أعداء يحاولون الانقضاض عليهم..

ان هذه الحياة.. هى الشر بعينه!

وقد أبدع المخرج فى أن يضعنا - بمنتهى الذكاء وخفة الدم.. وأيضا بمنتهى الاثارة - فى مواجهة هذا الأسلوب من الحياة.. وأقام

المحاكمة لأفراد هذه الطبقة.. وأصدر قراره بالادانة.. وترك لنا حرية الموافقة أو الرفض على هذا القرار.!!

والمخرج الايطالى (ماريو مونشيللى) يعتبر واحدا من أعظم مخرجى السينما الايطالية خلال الثلاثين عاما الماضية. وله مدرسته المتميزة فى الأفلام الكوميدية.

●●

وهذا المخرج مولود عام ١٩١٥، وقد درس التاريخ والفلسفة فى جامعتى «بيزا» و «ميلانو».. وبدأ يشق طريقه فى الفن بكتابة المقالات.. وفى عام ١٩٢٥ أخرج بالمشاركة مع «البرتو مونداورى» فيلما طويلا ١٦ مللى، وكان هذا الفيلم من انتاجهما الخاص، ولعب بطولة مجموعة من الممثلين الهواة.. وفاز الفيلم بجائزة مهرجان فينسيا السينمائى..

وعمل بعد ذلك مساعدا للمخرج «جينينا».. وفى عام ١٩٤٠ كتب أول سيناريو لفيلم طويل.. وظل حتى عام ١٩٤٩ يكتب سلسلة من السيناريوهات. ثم شارك فى اخراج سبعة أفلام كوميدية مع المخرج «ستنو».. وفى عام ١٩٥٣ بدأ يخرج أول أفلامه الطويلة وكان بطولة نجم الكوميديا الايطالية «توتو».

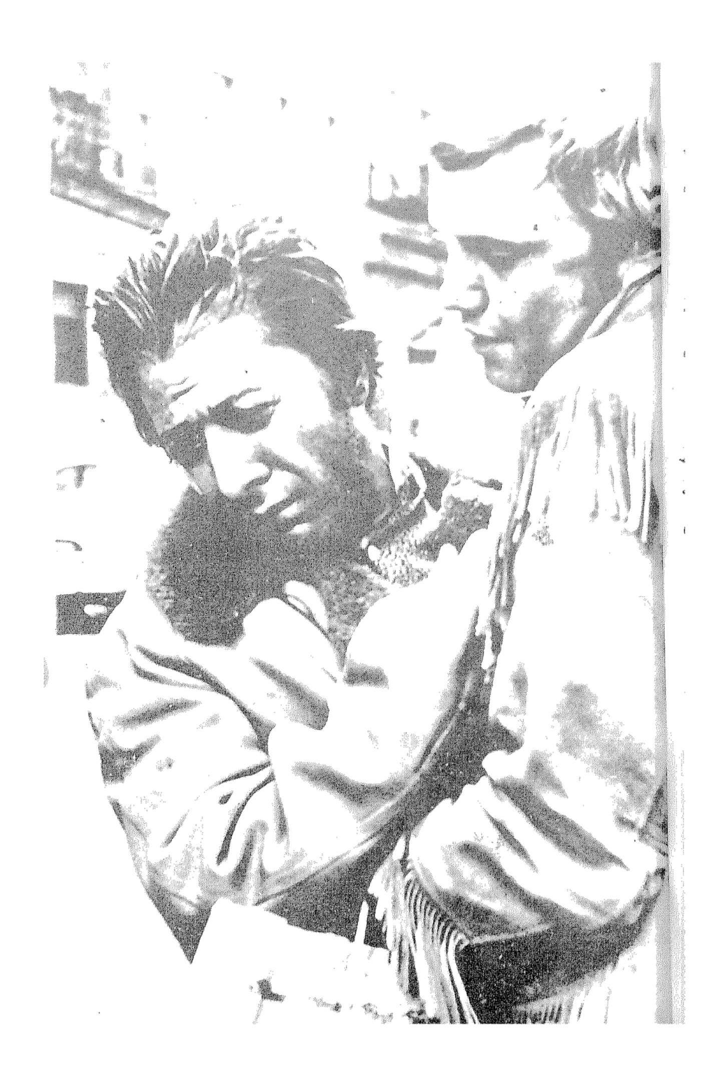
ومنذ ذلك التاريخ.. وحتى هذا الفيلم (برجوازى.. صغير.. صغير).. الذى عرض لأول مرة فى مهرجان كان ٧٧.. كان المخرج «مونشيللى» قد قدم للسينما الايطالية ٢٨ فيلما طويلا.

وفيلم (برجوازى.. صغير.. صغير) مأخوذ عن رواية بنفس العنوان للكاتب «فينسنزو سيرامى» الذى اشترك فى كتابة سيناريو الفيلم مع المخرج.

وقد لعب دور الأب فى هذا الفيلم الممثل الايطالى الكبير (البرتو سوردى) وهو من أبرع ممثلى الكوميديا الايطالية.. وقد أدى دوره فى هذا الفيلم بمهارة فائقة، وانتقل بنا من الضحك إلى المأساة والعنف.. وكأننا أمام شخصين مختلفين تماما.. وهذه براعته المذهلة فى تقمص الدور، ومايعكسه السطح الخارجى، وما يدور فى الأعماق..

أما الممثلة الأمريكية (شيلى ونترز) التى لعبت دور الأم.. فقد كان حنانها بليغا.. وصمتها أبلغ!.. ولعب دور الابن (فينسنزو كروسيتى).

لقد كان هذا الفيلم تشريحا لأسلوب الحياة.. وبقدر العنف الذى يظهره.. بقدر ما يقصده من عنف الحياة نفسها.. وتوحشها!



راعى بقر منتصف الليل

كانت مغامرته .. أن يهجر مدينته .. ويذهب إلى نيويورك .. ليعرض بضاعته.

كان قوى الجسم .. جميل الوجه .. طيبا .. لا يعرف المراوغة .. صريحا فى تحديد مهمته .. «أنا زير نساء مبتذل»!!

فقد كانت بضاعته التى جاء بها من مدينة تكساس إلى نيويورك، هى قوته الجنسية كان حلمه أن يبيع بضاعته لسيدات نيويورك العجائز .. ليغتنى!!

وتصور أن نيويورك ستستقبله استقبال الغزاة .. وسيحقق أحلامه بسرعة. وكيف لا؟!

يكفى أن يطرقع بحذائه الضخم وأن يثنى قبعته على جبهته .. لتركع أمامه كل النساء!! ولكن .. كيف استقبلته نيويورك؟

منذ اللحظة الأولى .. ضاع وسط الزحام .. لم يلتفت إليه أحد .. فبدأ يلفت الأنظار .. كان سلاحه .. راديو حمله معه من المدينة

وسؤال يحاول أن يفتتح به أية مناسبة مع أية سيدة يتصور أنها ستكون زبونته .. كان السؤال .. «كيف أصل لتمثال الحرية ؟!»

من هذا السؤال .. يتدرج فى كلامه بسرعة .. ليحدد بضاعته بصراحة.

وفشلت صراحته .. وابتسامته .. وفشلت ملابسه فى أن تجذب أحدا.

ولكنه كان مصمما .. وفى أول لقاء له مع امرأة أيقن تماما أنه أمسك ببداية الخيط .. ولكن كانت المرأة أخبث منه .. هى التى طلبت منه النقود!!

وضاعت نقوده تدريجيا حتى حجز الفندق على حقائبه إلى حين سداد الإيجار.

يتعرف على شاب عاجز عن الحركة .. يمشى بصعوبة .. بلا عمل .. بلا عائلة .. بلا أصدقاء .. ويتفق معه على أن يكون صديقا له فى هذه المدينة .. ويشكو من أنه جاء ليعيش على النساء .. لكن لم يفلح فى أن يطلبه أحد فيقترح عليه صديقه العاجز .. أن يعرفه على رجل يستطيع أن يحل له مشكلته .. ولكن كل شئ بحسابه «حينما أؤدى لك هذا المعروف .. يجب أن تدفع شيئا» .. عشرون دولارا .. ويتم الاتفاق!

ويذهب الشاب إلى الموعد .. ليكشف الحقيقة المروعة .. أنه لن يتعامل بقوته الجنسية مع النساء .. ولكنه سيتعامل مع الرجل نفسه. فالرجل من النوع الشاذ!!

هذه هى نيويورك إذن!!

المدينة اللامعة. الجذابة. مليئة بالقاذورات والبضاعة الفاسدة فى كل شبر!

إذن ليس هو الوحيد .. ولكنه هو الساذج الوحيد الذى اكتشف الحقيقة متأخرا!!

وإذا كان هو قد أراد أن يغزو المدينة بملابس رعاة البقر: فهناك آخرون غيره لم يرتدوا ملابس رعاة البقر .. ولكنهم ارتدوا ملابس العصر .. يبيعون بضاعة العصر .. فى مدينة عصرية!!

هل يعود ليسأل: «أين تمثال الحرية»

السؤال ساذج .. والتمثال بلا معنى!

وفى أحد البارات الرخيصة .. يلمح صديقه العاجز. ويتذكر ما فعله به.. فيغلى الدم فى عروقه.. ويسرع للانقضاض عليه.. لكن العاجز يواجهه باستسلام شديد. إنه غير قادر على العراك.. يقول له: إذا أردت أن تأخذ كل ما عندى فخذه.. ولكن للأسف لن تجد شيئا.. فأنا لا أملك شيئا!



الصديق العاجز .. طيب القلب.. طحنته المدينة المرعبة، فلم يعد فى جسده شئ سليم غير قلبه..و أن يعلن عن مشاعره الإنسانية بصدق!

أنه يعرض الصداقة على الغريب القادم من تكساس.. يعرض عليه المشاركة فى النوم معه فى منزله المهدم الآيل للسقوط .. إنه لا يستطيع أن يقدم له أكثر من ذلك..

ويقبل الشاب الغريب هذا العرض.. إنه على الأقل يحتاج إلى رفيق.. أو لدليل فى هذه المدينة الغّابة التى لا يعرف كيف يغزها؟!

فى مسكن الصديق العاجز.. نتعرف على مكان شديد الفقر..

شديد الإهمال.. ليس فيه شئ ينبض بالحياة إلا قلب مشاعر هذا الإنسان العاجز الذى يتخلى عن سريره، وعن طعامه لهذا الشاب الغريب!!

فهذا الإنسان العاجز .. يبحث أيضا عن الرفيق الذى يقطع عليه الصمت والوحشة التى يعانيها!

ويعيشان معا.

العجز والفشل.. صديقان يلتقيان فى مدينة بلا قلب!

وفى لحظة يأس شديد وإفلاس تام، يدخل الشاب الحالم بامتلاك قلوب النساء العجائز.. يدخل تجربة ممارسة الشذوذ مع صبى..

لقد بدأ يتنازل عن حلمه تدريجيا.. وإن كان لا يستطيع أن يتصور أن يفعل شيئا غير أن يبيع قوته الجنسية .. وإذا كانت النساء العجائز لم يفلح معهن.. فعليه أن يغير هدفه.

الصبى تبدو على وجهه كل علامات الذعر والخوف والرغبة.. ويشتد الذعر بالصبى، عندما يطالبه الشاب أن يدفع له.. يبكى الصبى بحرقة.. إنه لا يملك شيئا!!

حتى هذه التجربة المهينة له.. لم تنجح!!

وقرر أن يحدد سلوكه تجاه ما حوله.. بالعنف والقسوة.

فمدينة بلا قلب، يجب أن يتعامل فيها الإنسان بلا مشاعر..

وبلا إنسانية .. هكذا حدد خطته القادمة!!

وعندما يمرض صديقه العاجز.. ويأكل السعال صدره.. وتموت أعصاب ساقيه.. يشعر الشاب بمسئوليته تجاه إنقاذ هذا الصديق الذى قدم له كل ما يستطيع.

يتعلم الشاب كيف يقسو على المجتمع، وكيف تضيع ابتسامته، وكيف يستخدم قوته فى الضرب.. إنه يضرب رجلا عجوزا كان قد استدعاه ليمارس معه الشذوذ، يضربه ويسرق نقوده بالقوة.. ويهرب بها إلى مكان صديقه العاجز.. إنه يدخل عليه ملوحا بالنقود فى يده .. وكأنما يعلن انتصاره..

ها هو جاء بالنقود ليحقق حلم صديقه العاجز.. هذا الحلم الجميل الذى طالما حكى عنه.. أن يترك الماضى، ويترك المدينة كلها.. ويبدأ حياة جديدة ولذيذة فى «فلوريدا» حيث الراحة والهدوء والمتعة، الاستحمام فى مياه البحر كما يفعل الآخرون .. وأن يشرب لبن جوز الهند، الذى سمع عنه كثيرا وتمنى أن يتذوقه!!

وتعود الابتسامة على وجه الصديق العاجز.. لقد وجد أخيرا من يحقق له حلمه المستحيل.. ولكنه يتساءل بقلق.. من أين جاء بهذه النقود؟! الشاب يحاول أن يفلت من الإجابة ويسرع بحمل صديقه العاجز إلى سيارة الأتوبيس التى ستقلهما معا إلى فلوريدا.. الحلم..!

والأتوبيس ينهب بهما الطريق.. يشعر الشاب بسعادة غامرة.. لقد أفلت من هذه المدينة التى جاء ليغزوها فأغلقت أبوابها فى وجهه.. إنه الآن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته.. يتكلم.. يضحك.. يمتلأ بالحيوية والسعادة.. ينظر إلى صديقه العاجز.. إنه لا يشاركه الحديث.. إنه يبدو وكأنه تمثال من الشمع.. يهزه.. فيكشف أنه مات.. مات بلا صوت.. مات عاجزا تماما حتى عن التحكم فى منع نفسه من التبول على ملابسه الداخلية..

مات.. وهو فى الطريق إلى تحقيق حلمه.. بالراحة.. والاستجمام..

مات الإنسان.. مات الحلم.

كان يقول الشاب العاجز لصديقه وهو يحكى له معاناته الطويلة مع الحياة الصعبة، لقد كان والدى ماسحا للأحذية.. وكان يعود كل ليلة إلى المنزل والألوان ورائحة الورنيش تملأ أصابعه وتفوح منها.. حتى عندما مات لم نستطع أن نغسل أصابعه قبل أن ندفنه .. فقد تراكم الدهان فى الأظافر، أصبح جزءا منها، واضطررنا أن نلبسه قفازا من الجلد.. وندفنه به،!!

إنها حياة من يعيشون فى قاع المدينة العصرية جدا .. كما رآها المخرج الإنجليزى «جون شليسنجر» فى أول أفلامه التى يصورها

فى أمريكا.. من خلال رواية كتبها «جيمس ليوهيرلهى» التى حققت أعلى توزيع عند صدورها.

واختار المخرج أن يلعب دور الشاب العاجز الممثل الأمريكى «داستين هوفمان» الذى قدم أداء بارعا.. وشاركه نفس البراعة الممثل «جون فويت» الذى جاء ليبيع قوته الجنسية، فى فيلم ليس فيه أية بطولة نسائية.. ولكنه فيلم ينبض بالمرارة والصدق والسخرية.

راعى بقر منتصف الليل.. الذى جاء متأخرا إلى المدينة متوهما أنه سيغزوها.. فوجد أن الكثيرين قد غزوها قبله، بوسائل أخرى أكثر خبثا ودهاء. أما الإنسان، فهو عاجز مشلول.. سرعان ما يموت فى صمت..

وقد فاز هذا الفيلم بأوسكار أحسن فيلم.. وأحسن إخراج.. فى مسابقة الأوسكار الأمريكية عام ١٩٧٠.

●●

والمخرج «جون شليسنجر» تعرفه السينما الإنجليزية كأحد رواد السينما الحرة التى بدأت فى عام ٢٩٥٦ بعد ميلاد الموجة الجديدة، فى فرنسا بعام واحد.

والسينما الحرة فى إنجلترا قامت على فلسفة التعبير عن الواقع، والارتباط أكثر بالمشاكل الحقيقية التى تعانيها

الأغلبية.. ولكنها انحرفت فيما بعد لتعبر عن أحلام الطبقة المتوسطة.. ثم تموت هذه الحركة السينمائية، تدريجيا، لتفكك روادها وخضوعهم لإغراءات السوق التجارية أو الهجرة خارج إنجلترا.

والمخرج «جون شليسنجر» مولود فى لندن عام ١٩٢٦.. وتخرج من جامعة أكسفورد.. وأخرج أول أفلامه القصيرة عام ١٩٥٠ - وأول أفلامه الطويلة عام ٦٢ (نوع من الحب) - ثم فى عام ٦٣ أخرج فيلم (بيلى الكذاب) - وعام ٦٥ (عزيزتى) - عام ٦٧ (بعيدا عن الزحام المجنون) - وعام ٦٩ (راعى بقر منتصف الليل).. وهو أول أفلامه التى أخرجها فى أمريكا!



سائق التاكسى

فى كل شارع.. يوجد هذا الإنسان الذى يشعر بأنه لا قيمة لوجوده.. ويحلم بأن يصبح شخصا له وجود.. إنه إنسان وحيد، مهمل، منسى.. ويريد أن يثبت أنه مازال يعيش!!

هذه هى أزمة هذا الإنسان - الشاب - الممتلئ بالحيوية والمشاعر الفياضة فى مدينة بشعة. وطاغية.

المدينة هى نيويورك.. والفيلم عنوانه «سائق التاكسى».

وفيلم «سائق التاكسى» يكاد يكون تقريرا إنسانيا شديد الذكاء.. عن أحوال الحياة الأمريكية الآن.. فالعنف والجريمة والجنس هى الطابع المميز لعجلة الحياة.. بينما الإنسان العادى يشعر أنه «شئ» لا قيمة له.. وجوده أو عدم وجوده لا يمثل أهمية.. فى نفس الوقت ترتفع أصوات المرشحين للانتخابات الأمريكية بكلمات حول الحياة الأفضل.. والإنسان الأكثر سعادة واطمئنانا ورفاهية!

واللعبة السخيفة .. مستمرة!

يبدأ الفيلم.. وسيارة تمضى فى أحد شوارع نيويورك.. الشارع قذر.. تنبعث من فتحات الأرض أعمدة دخان ليشكل صورة ضبابية قاتمة.. فى الشارع أكوام زبالة. وبقايا علب البيرة والكازوزة وأصوات أطفال يلعبون وسط ضباب الدخان وشحاذون ودور سينما حقيرة تعرض أفلاما جنسية وأضواء نيون باهتة ومتداخلة وعزف خافت لموسيقى الجاز وكأنها تعبر عن هذا الكابوس الثقيل اللزج!

ينزل من السيارة. شاب يبدو عليه القلق والتوتر.. يتقدم من أحد أصحاب جراجات السيارات. ليطلب عملا كسائق تاكسى.. يسأله صاحب الجراج عن شخصيته ومؤهلاته وخبرته.. فيقول أنه فى السادسة والعشرين من عمره.. عائد من الحرب (فى فيتنام) وقد عمل بسلاح البحرية.. وله خبرة فى قيادة السيارات والشاحنات الثقيلة.. ويقدم بعض الأوراق الدالة على خبرته .. يسأله صاحب الجراج. إذا كان قد أصيب بأى مرض.. يبتسم الشاب فى سخرية. ويهز رأسه بالنفى.. ويتسلم العمل كسائق تاكسى، فى فترة الليل.. فهو لا يستطيع النوم ليلا لهذا يختار أن يكون عمله ليلا.

ينطلق فى شوارع نيويورك.. باحثا عن الزبائن.. يتسكع بمهل بمحاذاة الأرصفة يتأمل هذا الخليط العجيب من البشر.. أغنياء وفقراء.. عاهرات وعشاق.. سكارى .. مجرمين.. وقوادين.

عيناه تمسحان الطريق.. الإعلانات المضيئة تتزاحم لتعلن عن بضاعتها.. وأعمدة الدخان تغطى الجو بغلالة رمادية كئيبة.

أنه يتأمل كل شئ.. وكأنه يراه للمرة الأولى.

والخطر موجود دائما.. فهناك هذه المجموعة من الشبان السكارى الذين يتبارون فى فرح جنونى بإلقاء زجاجات الخمور الفارغة على السيارات!

وهناك المجرمون الذين يسرقون المارة.

وهناك أيضا.. عالم الدعارة السفلى!

تفتح باب سيارة التاكسى. فتاة صغيرة جدا، يبدو عليها الذعر والخوف، وبالرغم من الإصباغ الملونة التى تزين بها وجهها، إلا أنها تبدو كأن وحشا يطاردها.. وبالفعل بعد لحظات يهجم على التاكسى.. شاب ممتلئ الجسم، ويسحبها بعنف وقسوة، تصرخ وتبكى وهو يشتمها ويضربها، حتى يتمكن من إلقائها خارج التاكسى.. ولا ينسى أن يلقى لسائق التاكسى بورقة مالية مكرمشة ومكورة!

ويتأمل سائق التاكسى هذا المشهد الذى دار فى سيارته.. ولا يفتح فمه.

لا يعترض. ولا يدافع. لا يعلق. فى ذهول شديد يمد يده إلى الورقة المالية المكورة بجانبه.. فيكتشف أنها ورقة من ذات

العشرين دولارا.. ينظر لها باشمئزاز.. ثم يضعها بعيدا عن حصيلة عمله طوال الليل!

في مسكنه الضيق. المزدحم بالمجلات. وعلب الكازوزة الفارغة.. يجلس وحيدا على منضدة يكتب يومياته، أنها نوع من الخواطر والمشاعر التي تعبر عن وحدته وألمه.. (الوحدة تطاردني في كل مكان.. لا مهرب لي).. يكتب خطابا لأمه يعتذر لها عن عدم إمكانه تقديم هدية لها في عيد ميلادها.. مع أنه وعدها في العام الماضي بأنه سيقدم لها هدية. ولكنه لا يستطيع.

المسكن الذي يعيش فيه.. أشبه ببدروم لا يسمح بالحركة.. تتكوم فيه أشياء كثيرة بلا معنى.. على الحائط بعض صور فتيات مقصوصة من المجلات.. المسكن يعكس واقع نفسيته القلقة المتوترة، ويأسه من أن يصنع شيئا جميلا، في وسط هذه الحياة الكئيبة.

وينطلق بسيارته التاكسي ليلا.. وسط جو القمامة العام.. يشير إليه ثلاثة من الرجال.. يكتشف أن أحدهم قد رآه في التليفزيون يقدم برنامجه الانتخابي بمناسبة الانتخابات الأمريكية القادمة.. يسأله إذا كان اعتقاده صحيحا، في أنه هو المرشح الذي ظهر في التليفزيون.. يجيب المرشح بفرح.. ويتكلم عن برنامجه من أجل إصلاح الأوضاع.. يعلق سائق التاكسي بثقة شديدة أن المدينة أصبحت كمقلب للزبالة حيث اجتمعت فيها كل القاذورات.. وأنه لا حل سوى (شد السيفون) عليها!!

يستمع إليه المرشح وبجواره مرافقاه اللذان ينظران إلى بعضهما فى دهشة.. ولكن المرشح يبتسم له.. ويقول أنه سيفعل المستحيل لإصلاح الحال!

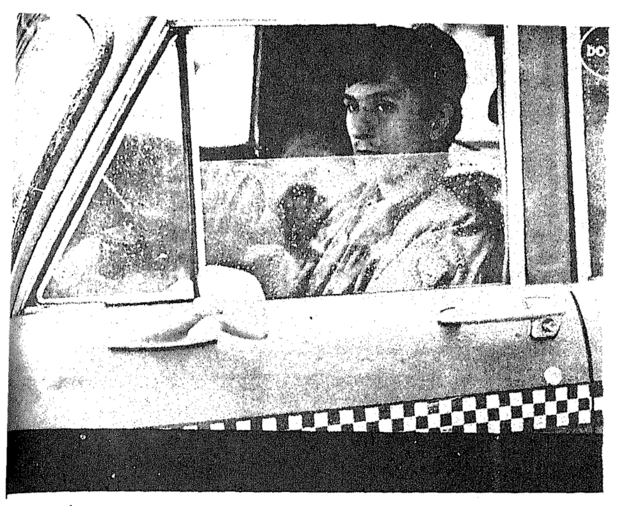
ينزل المرشح ومرافقاه، أمام أحد المبانى التى يقف على أبوابها المصورون والصحفيون وبعض المؤيدين للمرشح.. يصفقون له.. ويتزاحم المصورون عليه.

يتأمل سائق التاكسى هذا المشهد، ويبدو عليه الزهو.. لأنه استطاع أن يقول رأيه للمرشح!

ينطلق بسيارته التاكسى.. وتهاجمه من جديد مشاعر الوحدة، خصوصا عندما يرى اثنين من العشاق يسيران معا.. أنه يفتقد هذه العلاقة الحلوة.. أنه يفتقد المرأة عموما فى حياته!!

يذهب إلى إحدى دور السينما التى تعرض أفلاما جنسية.. يحاول أن يراود عاملة قطع التذاكر.. ولكنها لا تلتفت إليه.. وعندما يزيد من جرعة المعاكسة، تهدده بإبلاغ رئيسها فى العمل للتصرف معه.. يتراجع فورا.. ويشترى أكياسا عديدة من الفشار. والبطاطس المحمرة وعلبة كازوزة.. ويدخل إلى السينما .. لنراه يأكل وقد استرخى تماما على المقعد، ونسمع أصوات الفحيح الجنسى للفيلم المعروض!

فى الصباح يحوم حول مكتب دعاية لأحد المرشحين فى الانتخابات الأمريكية.



لقد استلفتت نظره هذه الفتاة الملائكية التى تجلس على أحد المكاتب.. يلاحظ رئيس المكتب أن سائق التاكسى يحوم بسيارته حول المبنى، وعينه دائما على هذه الفتاة.. يهزأ من الأمر كله.. ويبدو رئيس المكتب كنموذج للشخصية الأمريكية التافهة المثيرة للسخرية.

ولكن سائق التاكسى، يقرر شيئا.. يدخل إلى مكتب الدعاية.. ويتقدم من الفتاة التى استحوذت على مشاعره.. يسرع إليه رئيس المكتب، ولكن الشاب سائق التاكسى لا يلتفت إليه.. ويخترع قصة أنه يريد استشارة خاصة من هذه الفتاة.. ينسحب رئيس المكتب وقد تملكه الغيظ الشديد!!



سائق التاكسى يقول للفتاة: «إنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بها لقد وجد نفسه فى حالة من الشجاعة النادرة ليقتحم المكتب ليسأل عنها ويتكلم معها».

تبتسم الفتاة.. وتسأله ماذا بعد؟

يطلب منها فى لهجة محددة وواثقة.. أن تكون صديقته! تسكت قليلا.. وتنظر إليه وقد أدهشتها هذه الشخصية وأثارت فضولها .. تبتسم له.. وتوافق!

ويحدد لها موعدا بعد نهاية عملها..

يتأنق فى ملابسه.. يبدو لطيفا ورقيقا ومجاملا.. لقد تحقق حلمه أخيرا.. وها هى تأتى إليه.. جميلة، بيضاء، طاهرة كالملاك.

يسيران معا.. يجلسان فى أحد المطاعم الصغيرة.. يحكى لها عن نفسه وعن عمله.. يقول أنه لما نظر إلى عينيها. اكتسب شجاعة لم يكن يتصور أنها تواتيه.. تبتسم له فى براءة وحنان.. كأنها تفتح له الطريق، ليعبر عن نفسه ومشاعره!!

أنها تبدو كالزهرة الرائعة، وسط مدينة القاذورات والعنف.. والوقت يمضى بسرعة ولابد أن تعود لعملها.. يطلب منها موعدا آخر.. فتوافق.. يسيران معا.. تحدثه عن المطرب الذى يعجبها صوته.. هو لم يسمع عنه.. ولكنه يبدو أنه يجهز نفسه للعالم الجميل الذى تفتحه له هذه الفتاة الملاك.

يستعد لموعد اللقاء التالى.. يشترى لها أحدث اسطوانة للمطرب الذى يعجبها، يحتضن الاسطوانة فى سعادة ويمضى للقائها.

تنتظره، ويسيران معا، يقترح أن يذهبا إلى إحدى دور السينما.. توافق ولكنها تفاجأ بأن دار السينما التى اختارها تعرض الأفلام الجنسية القذرة.. ترفض الدخول.. أنها لا تحب هذا النوع من السينما.. وتسأله لماذا لا نذهب إلى إحدى الحدائق.. يصمم هو على دعوته لمشاهدة هذا النوع من السينما.. يقطع التذاكر يدفعها للدخول وما أن تجلس على أحد المقاعد.. وتلاحظ نوعية المتفرجين.. ويقتحم سمعها هذا الفحيح الجنسى للفيلم المعروض، حتى تهب واقفة تجرى مندفعة إلى الخارج.. يحاول اللحاق بها مندهشا لتصرفها.. ولكنها تبدو فى غاية الضيق والاستنكار..

ترفض بشدة أن يمسك ذراعها وتدفعه بعيدا عنها.. تصرخ فى وجهه أن يبتعد عنها ولا يكلمها.. وتشير إلى إحدى سيارات التاكسى وتندفع داخلها بسرعة وترفع زجاج النافذة، حتى لا تسمعه.. وتشير إلى السائق أن يمضى بها مسرعا.. يقف هو على الرصيف وقد هزته المفاجأة السريعة التى أفسدت كل أحلامه وأضاعت منه النسمة النقية فى هذا الجو الخانق.

ويحاول أن يعتذر لها.. يحادثها بالتليفون، فلا ترد.. يرسل لها الزهور يوميا فلا تستلمها.

ينهار عصبيا ويبدو عليه الحزن الشديد، ويندفع إلى مكتبها ويؤنبها لأنها ترفض قبول اعتذاره.. يحتد عليها.. يرتفع صوته.. وهى مذعورة من تصرفاته.. ويسرع إلى نجدتها رئيس المكتب، الذى يجدها فرصة مناسبة للانتقام من سائق التاكسى الذى حاول أن يكون صديقا لإحدى فتيات مكتبه.. ينهره..يطرده من المكتب.. ويهدده بإبلاغ البوليس.. يخرج سائق التاكسى وهو فى حالة غضب وهياج شديدين.. لقد أدرك تماما أنه فقد هذا الملاك إلى الأبد.

يذهب إلى جراج سيارات التاكسى.. ويطلب من صاحب الجراج أن يحدثه على انفراد .. يقول له: أنه لا يصلح لهذه المهنة.. ويطلب منه أن يبحث له عن عمل آخر.. يشعر صاحب الجراج أن السائق الشاب يعانى أزمة خاصة.. يقول له ببرود

شديد: «لا تشغل تفكيرك بمثل هذه المسائل.. فأنت لا تصلح إلا سائق تاكسى!!

لا مفر.. كل الأبواب مسدودة!!

يستقل سيارة التاكسى ويمضى بها فى الشوارع الكئيبة.. يلمح الفتاة الصغيرة العاهرة. هى وإحدى زميلاتها فى المهنة.. يلاحقها بالتاكسى.. ولكنها تتعرف على أحد الزبائن وتمضى معه.

يلاحظ الاجتماعات الانتخابية واللافتات والملصقات التى تدعو لتأييد المرشح الذى حادثه ذات يوم فى التاكسى.. ويكتشف أن فتاته الطاهرة كالملاك هى ومجموعة زميلاتها فى مكتب الدعاية معهم صاحب المكتب هذه الشخصية الكريمة. يشتغلون معا فى حملة الدعاية لهذا المرشح!!

أن هذه الاجتماعات الانتخابية تطارده فى كل مكان بالمدينة!!

يستوقفه أحد المارة.. ويطلب منه أن يمضى بالتاكسى، إلى أحد الشوارع الجانبية ويحدد له عنوان المنزل.. ويصل السائق إلى العنوان المطلوب، ولكن الشخص الجالس فى المقعد الخلفى لا ينزل من التاكسى. ينبهه السائق إلى أنه قد وصل.. «والزبون» يطلب منه مبتسما أن يقف بسيارته ولا يتكلم بصوت عال.. ومادام «العداد» يحسب النقود المطلوبة. فلا ضرر من الوقوف!! يتعجب السائق لهذا الطلب الغريب.. ولكنه يكتشف أن الزبون يراقب

حركة امرأة من خلف زجاج نافذة مضيئة.. يحكى له الزبون.. إن هذه المرأة هى زوجته.. وها هى الآن تستعد فى قلق لاستقبال عشيقها.. إنها تخونه دائما!!

وينظر إليه سائق التاكسى فى ذهول.. بينما الرجل يستمتع بمنظر زوجته الخائنة من خلف النافذة.

عالم عجيب.. ومقزز..

ويقرر سائق التاكسى أن يصنع شيئا.

يسعى لشراء مسدس .. يتعرف على شاب صغير الحجم يحمل حقيبة من حقائب رجال الأعمال.. يأخذه هذا الشاب إلى فندق ليستأجر حجرة.. وعندما يغلق الباب عليهما.. يفتح الحقيبة الصغيرة لنكتشف أنها ممتلئة بمختلف أنواع المسدسات. والشاب الصغير يشرح بهمة ونشاط نوعية كل مسدس وميزاته. والأسعار فى متناول الجميع.. وسائق التاكسى يقف مذهولا داخل حجرة الفندق وهو يستمع إلى الشاب يحاول أن يفهم هذه المعلومات التى تتدفق بسرعة من فم الشاب.. ولكنه لا يستطيع.. فيقرر شراء كل أنواع المسدسات الموجودة بالحقيبة.. وبحركة بارعة يقوم البائع الشاب بإخراج قائمة من جيبه بأنواع الأسلحة الأخرى التى يمكن أن يبيعها له، صواريخ.. غازات سامة.. مدافع رشاشة.. و.. و .. ينهى البائع الشاب قائمته بأنه مستعد أيضا لتوريد سيارات كاديلاك!!

كل شئ ممكن .. وببساطة شديدة!!

ويأخذ سائق التاكسى كل أنواع المسدسات التى اشتراها.. ويذهب إلى مسكنه .. ويبدأ التدريب عليها.. أنه يقوم أولا ببعض التمرينات الرياضية ليكتسب جسمه هذه الليونة المطلوبة فى الحركة والقفز وسرعة التصرف.. ثم يبدأ باختراع بعض الوسائل التى تتيح له استخدام أكبر عدد من المسدسات فى قت واحد.. حتى يصل فى النهاية إلى أنه يستطيع أن يدجج نفسه بثمانية مسدسات موزعة على ذراعيه وسطه وفخذه وقدميه!!

لقد تحول إلى ترسانة أسلحة متحركة! ها هو الآن.. جاهز تماما للعمل!

ولكن أى عمل.. أى هدف مطلوب تنفيذه؟

●●

وتواتيه أول فرصة من حيث لا يدرى.. لقد ذهب إلى أحد محلات البقالة ليشترى طعام عشائه.. بينما هو يختار طعامه يفاجأ بأن أحد الزنوج يهدد صاحب المحل بالقتل إذا لم يسلمه كل نقود خزينته.. وصاحب المحل يفتح الخزينة مذعورا ويبدأ فى استخراج كل النقود.. ولكن سائق التاكسى يصوب مسدسه بسرعة وبمهارة شديدة.. فيسقط الزنجى ملطخا بدمائه.. يشكره صاحب المحل لأنه أنقذه من هذا اللص.. ولكنهما يكتشفان أن اللص الزنجى قد



الا اذا كنت تعلم قصته كاملة.. فالدكتور دومر مهتم بتعليمك.. ويريدك أن تتعلم كيف تتكلم كما ينبغى».

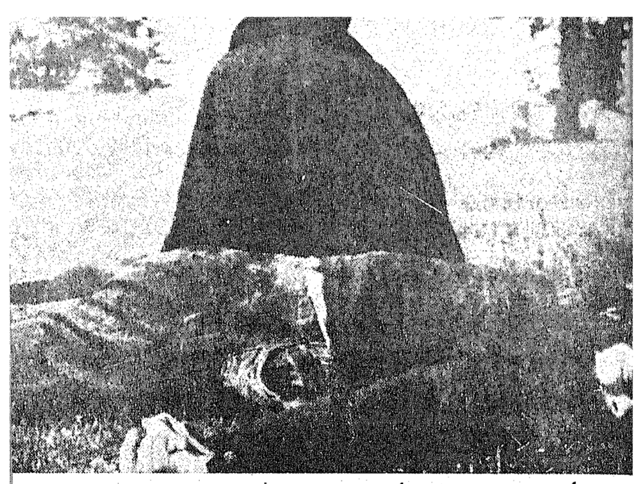
ويأتى رد المربية قاطعا.. أنها لا تريد الاستغراق فى التفاصيل.. فهى تدرك أن مهمتها محددة وليست مطالبة بالتأمل والتحليل.. ولكن «كاسبار» لا يكف عن محاولاته فى استكشاف الحياة.. أنه يجلس صامتا يتأمل الطبيعة.. وعندما يستلقى فى فراشه يبكى فى صمت.. تنساب الدموع من عينيه وكأنما تعلن عن كل الصراع الذى يموج بداخله.. أنه يحلم فى رقدته.. بسطح بحيرة فى وقت الغروب.. وقارب عليه رجل يجدف.. وفى خلفية القارب وجه امرأة.. وقصر.

ان هذا الحلم يشابه كثيرا الحلم الذى رأيناه فى بداية الفيلم.

وعندما يجلس «كاسبار» بجوار الدكتور دومر.. يخبره كاسبار بأنه حلم حلما جميلا.. فيعلق الدكتور قائلا: «أنا سعيد لإنك تتقدم كثيرا.. ولكن الغريب أنك لم تكن تحلم طوال فترة سجنك»!.

ويحكى كاسبار عن حلمه الأخير عندما رأى القوقاز.. ويتجسد لنا الحلم على الشاشة.. فنرى الشمس وهى تغيب على بعض الجبال القوقازية... بينما تنتشر المنازل والاكواخ فى الوادى.

يقول كاسبار معلقا على حلمه: «يبدو لى أن مجيئى للعالم.. كان أحد الاخطاء المروعة».



وتأتى هذه العبارة كمفأجاة غير متوقعة.. ويحاول الدكتور دومر أن يجد الكلمات المناسبة ولكنه لا يستطيع.. فيقول يائسا: «أننى لا استطيع أن افسر لك كل شئ».

ويبدأ «كاسبار» فى كتابة مذكراته. أن وجوده فى بيت الدكتور دومر يحقق له هذا الأمان والطمأنينة.. والدكتور دومر لا يكف عن تشجيعه وحثه على التذكر.. ففى أحد المشاهد نرى الدكتور دومر وهو يتأمل كاسبار وهو يكتب مذكراته.. ويقول له مشجعا: «استمر فى الكتابة.. أن كل سكان المدينة ينتظرون ما ستكتبه».

وبكل المعاناة والصدق يقول كاسبار: «هناك كلمات كثيرة أجهلها.. وهناك أشياء لا أفهمها»!.

ويعلم الدكتور دومر مدى الصعوبة التى يعانيها «كاسبار»، فلا يحاول أن يجهض هذا العقل الذى بدأ يدرك الاشياء.

ويخبره الدكتور دومر بأن هناك أحد النبلاء الانجليز فى زيارة قصيرة للمدينة، وطلب أن يتعرف عليه تمهيدا لاصطحابه معه فى رحلة العودة إلى انجلترا.. ويضيف الدكتور دومر «وسيكون رحيلك معه بدايه جديدة لمستقبل أسعد».

ويستجيب «كاسبار» لحضور حفل الاستقبال الذى يقيمه النبيل الانجليزى فى القصر الذى ينزل به.. فى هذا الحفل نرى الجميع ينظرون إلى «كاسبار» وكأنه «شئ غريب» يلاحقونه بالأسئلة والتعليقات.. تقول أحدى المدعوات لجارتها «أن كاسبار يبدو عليه هذا النبل الوحشى»!.

وتسأله زوجة عمدة المدينة.. ببلاهة واستعلاء: «قل لنا ياكاسبار كيف كان حالك فى السجن، أقصد داخل هذا القبو المعتم»؟

ويرد كاسبار بحكمة شديدة: «افضل من الخارج»!

فيتدخل النبيل الانجليزى فى رقة مصطنعة: «ولكن كلنا نحبك هنا ياكاسبار؟ هل تريد ان تتكلم؟ لا تخف»!.

ينظر كاسبار حواليه فيرى كل العيون مصوبة نحوه فيقول

وكأنه يريد آن يتخلص من هذه النظرات «لاشئ فى داخلى سوى حياتى».

ويحاول النبيل الإنجليزى أن يلطف الجو ويرضى ضيوفه أيضا، فيدعو «كاسبار» لأن يعزف على البيانو.. ويجلس كاسبار على البيانو ليعزف أحدى مقطوعات موتسارت.. وتتحرك أصابع كاسبار على البيانو بصعوبة شديدة، وكأن اصابعه مربوطة بالاحجار الثقيلة.. فتخرج الموسيقى من البيانو. بطيئة وكئيبة.. ويبدو على وجه «كاسبار» كل تعبيرات الضيق والألم.. يقف وهو يقول: «اريد بعض الهواء.. اشعر بالارهاق.. هل يمكننى ان أخرج قليلا بعيدا عن هذا الزحام».

ويخرج «كاسبار».. بينما النبيل الانجليزى يحاول أن يسلى ضيوفه بقصة يحكيها عن مغامراته فى اليونان».

ولكن بعد قليل يستأذن النبيل الانجليزى، ليصحب الدكتور «دومر» بحثا عن كاسبار، فيجدونه داخل حجرة يشتغل بالتريكو!! ويقف النبيل الانجليزى مذهولا أمام هذا المشهد.. ويعلق الدكتور دومر «أنا لا أفهم سر هذا التصرف»!.

●●

ويعود كاسبار إلى بيت الدكتور دومر.

وذات صباح بينما كاسبار يتمشى فى حديقة البيت، نفاجئ

على صوت «كاسبار» الواهن تتوالى لقطات لرؤياه حيث الضباب.. وجبل صخرى وبعض الأشخاص يتسلقونه.

«كاسبار» على الفراش يحتضر.. وبجواره اثنان من القسس يتلوان الصلوات.. ويقف الدكتور دومر حزينا.. ومن خلفه تقف المربية.. وزوجة حارس البرج.. يتمتم أحد القسس بصلاة «لا تبتعد عنى يارب.. كم أنا مرهق لانى بكيت كثيرا وبللت فراشى بدموعى ابعد عنى يارب كل فاعلى الاثم».

«كاسبار» يتكلم بصوت ضعيف.. كأنه حشرجة الموت.. «اريد أن احكى لكم عن الصحراء .. وقصة هذه القافلة.. ولكنى لا أعرف من القصة الا بدايتها».
بشخص غريب يرتدى قبعه سوداء، ولا نراه الا من ظهره.. وهذا الشخص الغريب ينقض على كاسبار بقضيب من الحديد ويضربه عدة مرات.. ويسقط كاسبار.. ويختفى الرجل الغريب.

ويلاحظ الدكتور دومر وجود بعض بقع من الدماء، فينتابه الهلع وينادى على المربية ويبحثان عن كاسبار فى الحديقة.. فيجدانه ملقى على كومة من القش والدماء تغطى وجهه ورأسه.. ينقلانه إلى داخل البيت.. ويأتى الطبيب ليقرر أن هناك اصابات فى الجمجمة.. كاسبار على الفراش يتكلم.. «اريد أن أقول شيئا».

دكتور دومر يستحثه لان يتكلم.. كاسبار يتمتم وكأنه يهذى: «لقد رأيت جبلا.. والناس تتسلقه.. وضباب كثيف.. وعلى قمة الجبل.. رأيت الموت..».

يسارع القس بتشجيع كاسبار على مواصلة الكلام: «نحن نسمعك.. ولا يهم ان كنت لا تعرف غير بداية القصة».

يواصل «كاسبار» رؤياه: «ارى قافله طويلة تعبر الصحراء» والقافله يقودها رجل عجوز أعمى

وتتوالى على الشاشة لقطات تجسد رؤياه.. ويستمر صوت كاسبار على اللقطات.

«وتوقفت القافلة لأن أحد افرادها اعتقد أنهم فقدوا الطريق، فثمة جبال تعترض الطريق.. ولكن الرجل العجوز الاعمى الذى يقود القافلة انحنى على الأرض وأخذ حفنة من الرمال وادار وجهه نحو الشمس، واخذ يتذوق الرمال.. ثم قال أنه لا توجد جبال امامنا.. أن هذا كله من فعل الخيال.. وسوف نتابع السير نحو الشمال.. وواصلت القافلة سيرها حتى وصلت إلى أطراف المدينة.. ولكن ماحدث بعد ذلك لا اعرفه..».

نعود لمشهد كاسبار على فراش الموت.. وقد بدا عليه الارهاق والتعب.. وبصوت ضعيف جدا.. يقول: «شكرا لاستماعكم لى.. اشعر بأننى مرهق»!.

●●

فى مشرحة المستشفى تواجهنا جثة «كاسبار» واقدامه ممدوده فى مقدمة الكادر. فى أحد الأقدام بطاقة تحمل اسم «كاسبار هاوزر».. وبعض الاطباء يفحصون أحشاءه يقول احدهم «أن الكبد

به تضخم».. طبيب آخر يقول «هناك نتوءات غريبه فى المخ».

المسجل يكتب هذه الملاحظات.. ثم يخرج من المستشفى ليركب عربة تجرها الجياد.. ونراه وهو يردد ماسيكتبه فى التقرير.. وينتهى الفيلم.. والعربة تمضى بعيدا..

هذه هى قصة «كاسبار هاوزر» كما يرويها المخرج الألمانى «فرنر هيرتزوج» فى فيلم اشبه بالملاحم حيث تمتزج الرؤى بالحقيقة فى نسيج ضبابى.. تراه ولكن لايمكن أن تقبض عليه بأصابعك.

أنه مثل الرؤى التى ظل كاسبار يتمنى ان يحكيها حتى نهايتها.. ولكنه لم يعرف الا بدايتها فقط.. هذه القافلة وسط الصحراء، والقائد الاعمى الذى يتذوق الرمال فيعرف كيف يسير.. حتى وصل بالقافلة إلى مشارف المدينة.. ثم.. ثم لا شئ.

وكأننا أمام فلسفة الحياة.. وهذه الرحلة الصعبة فى بحر الرمال.

ومن قبل حكى لنا كاسبار عن رؤياه.. هؤلاء الذين يتسلقون الجبل الصخرى.. وعلى قمة الجبل كان الموت فى الانتظار!

والمخرج يقدم لنا شخصية «كاسبار» وكأنه طفل كبير.. طفل بكل خبراته وادراكه للأشياء.. أنه ولد بعد خروجه من سجنه فى القبو المظلم.. وكان ميلاده الجديد وسط دوامة متلاحقة فيها البراءة والشر.. فيها الاخلاص والغدر.. فيها الرغبة الحقيقية فى

المساعدة وفيها ايضا استغلال الإنسان اسوأ استغلال بعرضه كفقرة داخل سيرك.. ولعبة مسلية فى حفل النبيل الانجليزى.

ومن خلال الشخصيات التى التقى بها «كاسبار» نتعرف على الذين أرادوا له الحياة والاستمرار والتعلم والادراك.. والذين ارادوا له الظلام والجهل الموت ايضا!

هذا الطفل الكبير، برغم حداثة معرفته بالحياة.. الا أنه ادرك باحساس فطرى وتلقائى ان وحشية البعض تفوق كل احتمال.. أنه يقول: «الناس.. أنى اراهم كالذئاب..» ويقول.. «اشعر بالاختناق.. اريد ان أخرج بعيدا عن هذا الزحام».. وهو ايضا الذى قال: «يبدو لى أن مجيئى للعالم.. كان احد الاخطاء المروعة».. ثم يحاول ان يستمر فى تعلم اسرار الحياة ولكنه يعلن يأسه وحيرته «هناك اشياء لا افهمها».. وعندما يضيقون عليه الخناق يصيح قائلا: «لاشئ فى داخلى سوى حياتى».

لقد اكتشف فى فترة وجيزة.. عندما خرج للنور وللناس.. «ان الحياة داخل السجن المظلم.. افضل».

وكأنه ينعى أنه تعلم وادرك وتعرف على الناس.. رغم مافى الحياة من طبيعة ساحرة تراوده دائما فى احلامه، حيث البحيرة والغابات والسماء عند الافق.

ولكن هذا الشر موجود مع الإنسان.. لقد احب الاطفال واحبوه وساعدوه لان يتعلم.. أما الكبار فقد ارادوا تخويفه.. وامتحان

قدرته على مواجهة الخطر.. واخيرا جاء احدهم ليقتله بدون سبب كما فعل معه فى البداية عندما القاه فى هذا القبو المظلم بدون ذنب اقترفه!!

●●

ورغم ان المخرج الإلمانى اعتمد على قصة حقيقية.. الا أنه اقام من فيلمه قضية أكبر.. هى قضية مواجهة بين البراءة والشر من خلال رحلة الحياة.

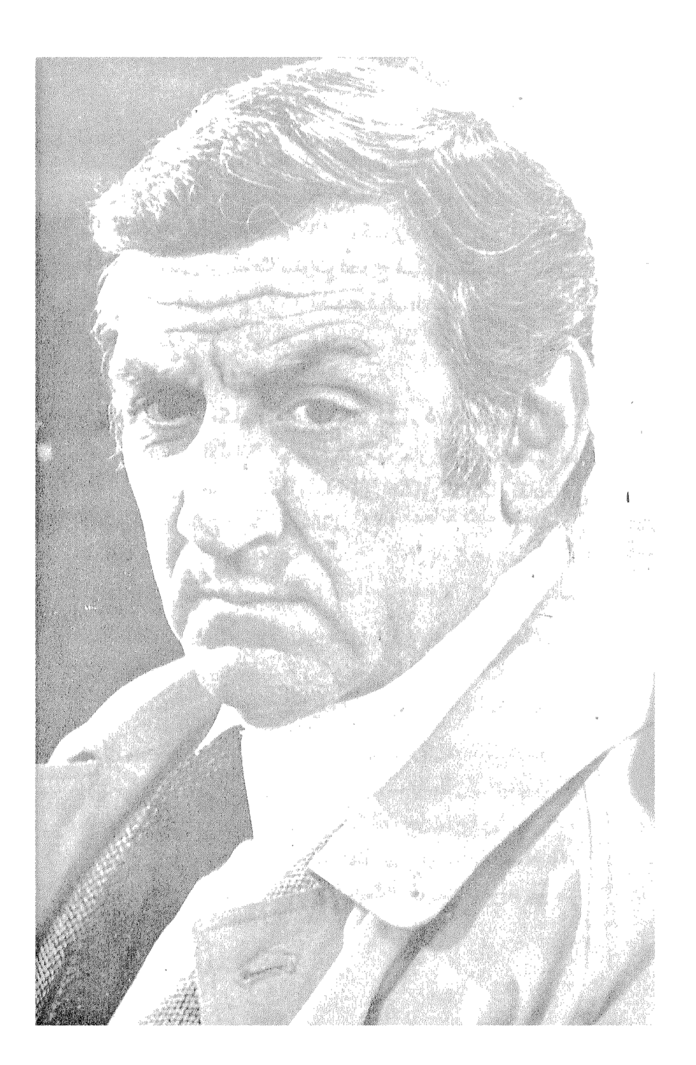
والمثير تماما ان هذا المخرج الإلمانى، اعتمد فى تجسيد شخصية «كاسبار» على ممثل هاو عاش جزءا من حياته متنقلا بين المصحات النفسية والعقلية.. وقد اختاره المخرج لأنه وجد فيه أفضل من يعبر عن الألم والمعاناة.. وهذا الممثل لم يعرف اسمه كاملا فقد أصر ألا يعلن عن اسمه، واكتفى بهذا اللقب «برونوس».

وقد لعب هذا الممثل دورا بارعا.. واستطاع أن يكسو ملامح وجهه بعلامات الدهشة والفزع فى استقباله للحياة الجديدة التى اخرجوه لها بعد ستة عشر عاما من السجن داخل قبو مظلم.

أما المخرج «فرنر هيرتزوج» فهو من جيل السينمائيين الشبان الذين يصنعون السينما الإلمانية الجديدة وهو من مواليد عام ١٩٤٢ .. أى أنه أخرج هذا الفيلم وعمره خمسة وثلاثين عاما.. وقد اختار لنفسه ومنذ أن كان فى التاسعة عشرة من عمره ان يجوب افريقيا وامريكا اللاتينية والولايات المتحدة، كان هدفه ان

يرى وان يتعلم وان يتامل على الطبيعة.. وعندما عاد إلى المانيا بدا يعلم نفسه فن السينما، واخرج عدة افلام تسجيلية.. ثم اخرج أول افلامه الطويلة عام ١٩٦٧ وكان اسمه «علامات على الحياة».. ثم بعد ثلاث سنوات اخرج فيلم «حتى الاقزام بداوا صغارا».. وفى عام ١٩٧١ اخرج فيلم «اجويرا.. غضب الله» والذى صوره كاملا فى افريقيا، وكان هذا الفيلم هو بداية نجاحه على المستوى العالمى.

ثم جاء فيلم «كاسبار هاوزر» فى عام ١٩٧٥ ليحقق اجمل انتصار للسينما الإلمانية الجديدة فى مهرجان كان السينمائى لعام ٧٥، وليحقق ايضا اهتماما واسعا بين عشاق السينما ونقادها فى جميع البلدان التى عرض بها الفيلم.



جثث لذيذة

القضاة يتم اغتيالهم الواحد وراء الآخر..

لماذا القضاة بالذات؟ هل هى شهوة مجنون؟ أم انتقام بعض المتهمين؟.. أم أن هناك أسبابا أخرى؟

يبدأ الفيلم وأحد رجال البوليس يحاول أن يحقق هذه الظاهرة المثيرة.. ويتوالى أغتيال القضاة.. ويتشعب البحث والتحقيق حتى يصل إلى المفاجأة المذهلة!

الفيلم اسمه : «جثث لذيذة» للمخرج الايطالى «فرانشيسكو روزى».

والأحداث تقع فى ايطاليا ..

يفتتح الفيلم بهذا الإنسان العجوز الذى يسير فى أحد شوارع المدينة .. ويتوقف قليلا أمام شجرة الياسمين التى تتدلى أفرعها على سور أحد المنازل ..إنه يبتسم لهذا الجمال .. يمد يده ليلتقط

فرعا من الياسمين .. وفجأة تصرعه رصاصة .. فيسقط جثة هامدة ويده تقبض على فرع الياسمين !

هذا الإنسان العجوز .. هو وكيل النائب العام !!

ويدوى خبر مصرعه .. فلم يسبق فى تاريخ الإجرام فى هذه المدينة . إن هدد أو ضرب رجال القضاء من أجل موقفهم ، أو من أجل حكم نطقوا به !!

ويتجمع أهالى المدينة أمام الكنيسة اثناء مراسم تشييع الجنازة .. وتحيط عربات البوليس بالمكان .. وتمرق عربات تلقى بالمنشورات التى تندد بهذه الجريمة وبحالة الأمن .. وتمتلئ الساحة الخارجية أمام الكنيسة بالمنشورات .. ويراقب رجال البوليس هذا الموقف ولا يتعمدون الصدام .. بينما يتفرغ المفتش روجا (يلعب الدور لينو فنتورا) لجمع معلوماته عن هذه الجريمة .. لقد أوفدته العاصمة إلى هذه المدينة ليتولى التحقيق .. وهو من أمهر رجال البوليس .. ولكن تحرياته الأولية أوشكت أن تصل به إلى الاعتقاد أنه أمام إحدى جرائم المافيا .. إلى أن تحدث المفاجأة التالية .. اكتشاف جثة قاض آخر على طريق البلدة المجاورة !!

اثنان من رجال القضاء. قتلا بنفس الطريقة فى أسبوع واحد .. وبالرغم من أن الجريمتين وقعتا فى مدينتين بعيدتين عن بعضهما.. إلا أن من المؤكد أن هناك خطأ يستهدف اغتيال رجال

القضاء .. وتقع الجريمة الثالثة ويقتل قاض آخر فى مدينة ثالثة قريبة من المدن السابقة ، وللجرأة الشديدة تقع جريمة الاغتيال هذه، داخل أحد بنوك المدينة . ويسود الهرج والرعب. ويختفى القاتل وسط الزحام !!

وتثير موجة الاغتيالات المتعاقبة . قلق العاصمة .. ويقدم رئيس الدولة ورئيس المحكمة العليا احتجاجهم إلى المسئولين عن الأمن .. الذين يتحركون بالتالى لمحاولة تهدئة الرأى العام الذى بدأ يثور ، وتصبح التعليمات عند رجال الأمن أن يعثروا بسرعة على هذا الخطر المجنون الذى يهدد منشآت الدولة !

حالة من الارتباك والقلق والفوضى ..

ويغرق مفتش البوليس «روجا» وسط ملفات القضايا التى نظرها هؤلاء القضاء الذين تم اغتيالهم .. لعله يجد خيطا يوصله إلى السبب !

وبعد جهد شاق ، استطاع «روجا» أن يحدد ثلاث حالات لأشخاص مطلقى السراح . ويوجدون فى ذات المنطقة.

الأشخاص الثلاثة . أدينوا من قبل فى أحكام قضائية ولكنهم كانوا دائما يعترضون من أجل براءتهم .

الثلاثة هم، عاطل يقضى يومه فى الأماكن المشمسة. والثانى رجل شاذ جنسيا، والثالث صيدلى اسمه «كريس» .. وحصر المفتش

«روجا» شكوكه فى هذا الأخير.. وبدأ يتعقب الأماكن التى يحتمل تواجده بها.. ولكن المفاجأة المحيرة التى صادفت المفتش أن هذا الصيدلى لا توجد له صورة واحدة يمكن أن يستدل بها على شكله!!.. حتى عندما فتش منزله وجد كل الصور منزوع منها وجهه أو جسده، حتى فى ملفات السجن الذى قضى بداخله هذا الصيدلى «كريس» عقوبته، لم يجد له صورة واحدة، ولا حتى فى أرشيف الجرائد!!

أن هناك تعمد لإخفاء ملامحه.

وبهذا أصبح الصيدلى، شخصا غير مرئى!!

وبعد فترة قليلة، يلقى أحد القضاة مصرعه.. ويعرف المفتش «روجا» أن هذا القاضى الذى اغتيل أخيرا، كان أحد هيئة القضاة التى أدانت هذا الصيدلى.. ويصبح افتراض المفتش. يقيناً!!

ولكن كمقابل لكل هذا، يتم اغتيال أحد القضاة فى العاصمة كنوع من التعمية والتحدى فى نفس الوقت!!.. ويجمع شهود هذا الحادث أن هناك شابين من ذوى الشعور الطويلة هربوا فور الحادث فى سيارة مرسيدس بيضاء عليها أرقام مسجلة فى سويسرا!!

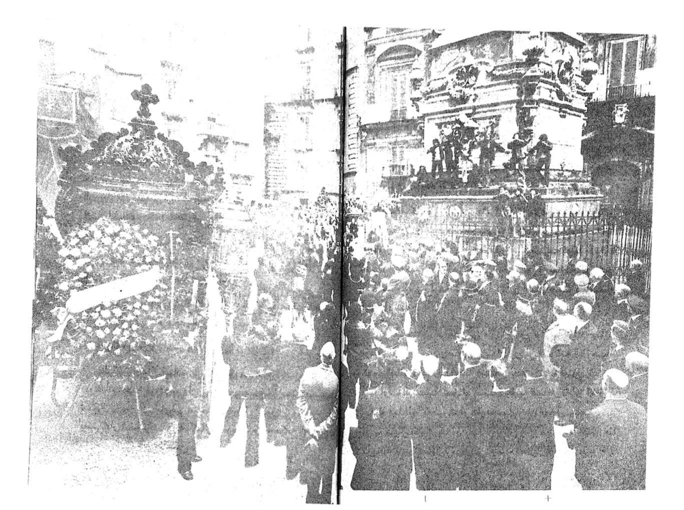
وتزداد حالة التذمر بين الرأى العام الذى يطالب بوضع حد لهذه السلسة الدامية من الاغتيالات والفوضى واللا أمن.. وتسود

العاصمة حالة شديدة من القلق والذعر.. اجتماعات واستجوابات متتالية.. ويظهر رئيس الدولة فى التليفزيون ليهدئ الرأى العام ويتهم فئة معينة بمحاولة نشر الذعر والفوضى.

ويتم استدعاء مفتش البوليس «روجا» إلى العاصمة، ليطلب منه رئيس البوليس بلهجة حادة قرار الاستغناء عن خدماته، ونقله إلى فرع آخر فى البوليس!

ويفهم مفتش البوليس «روجا» أنه غير مرغوب فيه، وأن هذا القرار يعنى تجميد نشاطه والبعد عن مسرح هذه القضية الخطيرة.. ويتقبل «روجا» هذا القرار رغما عنه، ولكنه اتماما لمهمته وأحساسا بالخطر القادم يطلب مقابلة عاجلة مع رئيس المحكمة العليا ليحذره من أن الدور قادم عليه فى سلسلة الاغتيالات.

ويذهب مفتش البوليس إلى منزل رئيس المحكمة، ولكنه يفاجأ برد الحارس أنه لن يتمكن من مقابلة رئيس المحكمة قبل مساء اليوم التالى، ويفاجأ أيضًا عند خروجه من هذا المنزل ببعض السيارات الرسمية السوداء المسدل عليها الستائر تغادر المنزل، حاملة بداخلها بعض كبار الشخصيات من الجيش.. كما يوجد بينهم رئيس البوليس!! ويلاحظ أيضا أن وراء مجموعة السيارات الرسمية تتحرك سيارة مرسيدس بيضاء تحمل أرقاما من سويسرا!!



ويصبح هذا الاكتشاف مثيرا للغاية!.

ما معنى تواجد كل هذه الشخصيات الهامة فى منزل رئيس المحكمة العليا؟! وما معنى وجود هذه السيارة البيضاء التى أجمع الشهود من قبل أنهم رأوها فى مصرع قاضى العاصمة؟!

ويستجمع مفتش البوليس «روجا» كل مهارته فى محاولة كشف هذا السر الغامض.. وبخدعة يدبرها يتمكن من الاتصال برئيس البوليس الذى يدعى أن هذه السيارات الرسمية التى كانت تحمل كبار الشخصيات، كانت فى حفل استقبال أقامته السفارة البرتغالية!!

وبمكالمة تليفونية أخرى مع السفارة البرتغالية، يكتشف أن السفارة مغلقة فى أجازة منذ أسبوع!!.

ويفهم «روجا» أن سلسلة اغتيالات القضاه مرتبطة بهذا الاجتماع السرى لكبار رجال الدولة!!

إذن القضية أكبر وأخطر مما يتصور!

وبالرغم من قرار أبعاده عن التحقيق فى هذه القضية، إلا أنه يدرك أن عليه دورا يجب أن يؤديه.. ويعرف أن هناك حفل استقبال يقيمه هذا المليونير صاحب الأسطول البحرى، وهذا الحفل يضم كبار شخصيات الدولة، كما يحضره رئيس المحكمة العليا وهو ما يسعى إلى مقابلته لتحذيره.

ويدخل إلى الحفل، غير مدعو من أحد، ويقابله الجميع بتجاهل أو استنكار أو بابتسامة سخرية.. ولكنه يحدد هدفه بالاتجاه فورا إلى حيث يقف رئيس المحكمة العليا.. وعندما يبدأ فى الكلام معه، يشعر فجأة أنه وجها لوجه أمام الصيدلى «كريس» الذى ظهر واختفى كشبح!!

ويسرع بمحاولة البحث بين الحجرات ولكن لا أثر له!!

ويخرج من هذا المكان وقد ازداد الأمر غموضاً!

هل هذا الصيدلى «كريسى» أداة رجال السلطة وسلاحهم؟

إذن الأمر أخطر من عملية اغتيالات بعض القضاة.

أنها مؤامرة كبرى تستهدف نظام الحكم كله!!

وعندما يتوصل مفتش البوليس «روجا» إلى هذه النتيجة.. يحاول أن يتصل بصديق الطفولة، هذا الصحفى الذى ينتمى للحزب الشيوعى، لكى يحدد موعدا معه ليشرح له ما يحدث.. حتى يمكن بعد ذلك تدبير لقاء مع سكرتير الحزب الشيوعى.

ويختار المفتش «روجا» أن يتم لقاؤه مع صديقه الصحفى فى حديقة الحيوانات بالمدينة.. فهو يشعر تماما أنه تحت المراقبة. وأن حركاته وكلماته مسجلة ولهذا اختار مكانا مزدحما وفى الهواء الطلق.

ويتم اللقاء.. ولكن هناك هذا الشحاذ الضرير الذى يجلس على أحد المقاعد ومعه كلبه الضخم.. إن هذا الشحاذ أحد رجال البوليس، وهذا الكلب مثبت فى جسمه ميكروفونات دقيقة للتصنت!!

ويطلق الشحاذ كلبه الضخم فى تجاه المفتش «روجا» وصديقه الصحفى..

وفى المقابل نسمع ما يدور بينهما فى حجرة رئيس المحكمة العليا.. إن الميكروفات المثبتةفى الكلب.. موصلة لاسلكيا بجهاز استقبال موجود فى حجرة رئيس المحكمة.. أنه يسمع كل النتائج التى توصل لها المفتش .. ويسمع طلبه بتحديد موعد مع سكرتير الحزب الشيوعى.. ويسمع بالموعد المحدد الذى يحمله إليه الصحفى.

وفى اللحظة التى تنقل فيها أجهزة التصنت فى حجرة رئيس المحكمة، خبر الموعد المحدد.. تنطلق رصاصة مجهولة تقتل رئيس المحكمة على الفور.. الرصاصة تأتيه فى رأسه.. فيسقط على جهاز التصنت مضرجا فى دمائه!!

المتأمرون يقتلون بعضهم..

ويذهب مفتش البوليس «روجا» ليلتقى بسكرتير الحزب الشيوعى فى الموعد والمكان المحدد.

أنه متحف المدينة.

ويتعرف كل منهما بالآخر.. ولكنهما لا يتكلمان خوفا من عملية المراقبة التى يشعران بها.. ويتجولان فى المتحف.. حتى يصلان إلى أحدى الصالات الخاوية من الجمهور.. وما أن يبدأ المفتش فى الكلام.. حتى تأتيه رصاصة عاجلة تستقر فى ظهره.. ويسقط قتيلا قبل أن يتمكن من إخراج مسدسه.. ويحاول سكرتير الحزب الشيوعى الدفاع عن نفسه.. ولكن تأتيه هو الآخر رصاصة.. فيتهاوى جسده غارقا فى الدماء!!

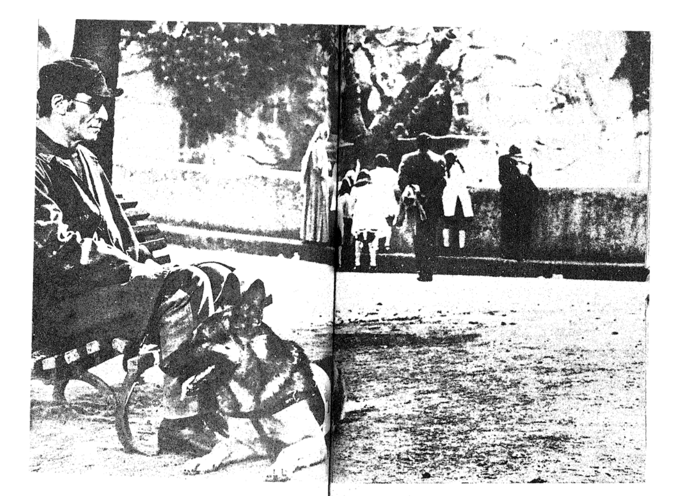
وتتكوم الجثتين فى صالة المعرض بالمتحف!!

بينما يظهر رئيس البوليس ليدلى بتعليقه على الحادث فى التليفزيون.. فيقول أن المفتش «روجا» كانت تعذبه منذ فترة مجموعة من الأوهام الكاذبة، فاختل توازنه العقلى، وأصيب بالاكتئاب والجنون.. وتصور أن سكرتير الحزب الشيوعى يدبر مؤامرة.. فأطلق عليه الرصاص.. وتمكن سكرتير الحزب الشيوعى أن يخرج مسدسه ويقتله.. وهكذا قتل الأثنان بعضهما!!

الكذبة واضحة ودنيئة.. ولكن من يملك الحقيقة الآن؟!

وتجتاح المظاهرات الشعبية شوارع العاصمة المحاصرة بالمدرعات وقوات الأمن.

ولكن المفاجأة الأخيرة تأتى من الحزب الشيوعى نفسه.. عندما يقف أحد المسئولين ليلقى بتصريحه فيقول: «الحقيقة.. ليست دائما ثورية»!



وينتهى الفيلم بهذا التصريح السياسى الغريب والمثير حقا!!

وفيلم «جثث لذيذة» الذى أخرجه ببراعة «فرانشيسكو روزى» يجعلك تلهث فى غموض المؤامرة.. ثم يتركك وقد استحوذت عليك تماما صدمة المفاجأة.

لماذا يقتل المتآمرون هؤلاء القضاة.. كيف واتتهم الفكرة.. وكيف يقودون أداتهم؟

ثم.. كيف بدأ المتآمرون يقتلون بعضهم؟

ولماذا وقف الحزب الشيوعى هذا الموقف المائع؟ وبالرغم من أنهم يعرفون كل الحقائق؟!

إن كل هذه التساؤلات يضمنها «فرانشيسكو روزى» فى نسيج فيلمه الذى يأخذ طابعا بوليسيا ولكنه فى الحقيقة فيلم سياسى من الدرجة الأولى.. أنه يفضح كل المحاولات للاستيلاء على السلطة.

إن هدف كل هؤلاء المتأمرين الذين حصدوا هذا العدد الضخم من الجثث وتسلقوا عليها، إن يحققوا غرضهم فى إثارة الفزع والتوتر والفوضى حتى يثبوا إلى السلطة.. وعندما أدرك الحزب الشيوعى هذه اللعبة السياسية اكتفى بالمراقبة بالرغم مما أصابه من رذاذ المؤامرة وفقده لأحد أعضائه البارزين.. ثم تصريحه المثير فى النهاية: «الحقيقة.. ليست ثورية»!!

وقصة الفيلم مأخوذة عن رواية للكاتب الايطالى «ليوناردو سكياسكيا».

وقد اشترك فى كتابة السيناريو مع المخرج «فرانشيسكو روزى».. كل من «تونينو جييررا» و«لينو جانيوزى».

يقول المخرج «فرانشيسكو روزى» عن فيلمه: «أنا لا أعطى دروسا سياسية.. ولكنى أترجم حالات النفس البشرية».

ويقول أيضا «أريد أن يكون هذا واضحا تماما. إن فيلمى ليس تحليلا للموقف السياسى فى إيطاليا اليوم، وقد تكون نهاية الفيلم مثيرة ولكنى اخترتها هكذا تعبيرا عن القلق الاختيارى الذى أوصلتنا إليه الرواية»!

وعن موقف الحزب الشيوعى كما أظهره المخرج فى فيلمه.. يقول محللا وجهة نظره: «إن القضاة ليسوا سوى متفجرات استخدمها المتآمرون بدلا من القاء القنابل فى القطارات أو البنوك لقد كان المطلوب من قتل القضاة هو الإثارة والتهييج.. وبعد هذا تفرض القوة لإزالة الحكومة الضعيفة وتثبيت قدم المعارضة.. أما الحزب الشيوعى فقد آثر أن يحتفظ بالموقف فى يده، ولم يقع فى الفخ.. لأنه يعلم أنه إذا فضح المتآمرين وأعلن عن أسمائهم لثارت الجماهير.. ونجحت خطة المعارضة.. وبالنسبة لليسار أهم شىء بالنسبة له هو الحفاظ على سلطته والعلاج السطحى لمجتمع يحتضر.. وعندما يصرح المسئول عن الحزب «الحقيقة ليست

دائما.. ثورية».. فمعنى هذا أن الحزب يصدق على التصريح الرسمى للأحداث.. وفى السياسة.. نقيض الحقيقة ليس دائمًا هو الكذب.. والنضال طويل ويومى ومستمر والثورة السحرية التى تغير كل شىء بين يوم وليلة عرفناها، وانتهت.. وبالنسبة لى فأنا أرتاب فى نظام شيوعى - ديمقراطى مسيحى.. ولقد أخذت بتحذير مؤلف الرواية الأصلية «سكياسكيا» والذى يتعلق بموقف إيطاليا.. لماذا هؤلاء الذين بقوا فى السلطة ثلاثين عاما، لم يصبحوا بشكل ديمقراطى، قوة معارضة شرعية وبناءة؟!

وعن شخصيات فيلمه.. يقول المخرج «فرانشيسكو روزى» محللا:

. «لقد اخترت الممثل «لينو فنتورا» ليلعب شخصية رجل البوليس المثقف.. المركب الشخصية.. لقد ترك لى الكاتب الأصلى للرواية حرية اختيار هذه الشخصية.. ولقد كنت أتصور هذه الشخصية.. بطلا إيجابيا ثابتا ليس به أى نوع من السذاجة.. ولكنه شريف وصلب، بلا مشاكل خاصة، وقوى وقلقه يجعلنا نقلق معه بالتالى».

«شخصية الصيدلى كريس بدأت بجرائمه الأولى الانتقامية ثم تحول إلى الذراع العنيف للمؤامرة بعد أن استخدمته عصابة المتآمرين.. فالعدالة هى النظام الأكثر استقرار وعندما تهدم العدالة يصبح كل شىء ممكنا.. وتحقق المتآمرون من أن هذه وسيلة جيدة وفعالة لإرهاب الجماهير. وأصبح القضاة كبش الفداء».

ولكن من هو العقل المدبر لهذه المؤامرة؟

يقول المخرج «روزى»: «إنه رئيس البوليس الذى أوقف المفتش «روجا» عن بحثه. والذى يملك الوسائل التكنيكية للتجسس، والذى أعطى فى النهاية التصريح الرسمى للتليفزيون عن الجريمة، وهو تصريح كاذب وملفق»!

ما هو دور المليونير صاحب الاسطول البحرى والذى استطاع أن يضم إلى حفلته كل هذه الشخصيات الرسمية بالإضافة إلى المتآمرون؟

يقول المخرج «روزى»: «القوة الاقتصادية هنا تأكل فى أكثر من مكان، وبأكثر من أسنانها وتشرب حتى الثمالة..»!!

وهذه التحليلات التى يقدمها المخرج «روزى» تأكيد على درايته الكاملة وفهمهم العميق لأبعاد البناء الأساسى للرواية. وكيف حولها إلى صورة سينمائية بليغة مملوءة بالحركة والتوتر والمعنى!

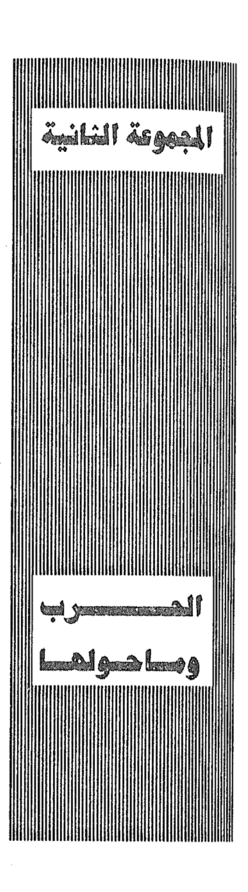
ولعب الممثل الإيطالى العظيم «لينو فنتورا» دوره بإتقان شديد، كان إنسانا بكل ضعف وقوة وحيرة الإنسان.. لم يكن يمثل شخصية رجل البوليس السوبرمان الذى يمكن أن يتواجد وأن يفعل حيثما يريد.. بل كان معبرا عن حالة السقوط فى الدوامة بكل إحساس المرارة لبشاعة هذه الدوامة.

وشارك فى بطولة الفيلم «فرناندو راى» و«ماكس فون سيدوف».

والمخرج «فرانشيسكو روزى» يعتبر واحدا من ألمع مخرجى السينما السياسية فى إيطاليا.. فهو صاحب فيلم «قضية ماتية».. و«الأيدى فوق المدينة» و«التحدى» و«سلفاتورى جوليانو».. وهى أفلام بارزة فى تاريخ السينما الايطالية المعاصرة.

وقد ولد المخرج «روزى» فى نابولى عام ١٩٢٢، درس القانون ـ ورسم للأطفال «أليس فى بلاد العجائب». وفى عام ٤٤ بدأ يكتب ويخرج لاذعة نابولى. ومنذ عام ٤٨ اتجه للسينما وعمل مع «فرانكو زيفيريلى» تحت أشراف «فيسكونتى».. وبعدها بعشر سنوات أخرج أول أفلامه الطويلة.

وفيلم «جثث لذيذة» أتمه عام ٧٥ .. واشتركت به إيطاليا رسميا فى مسابقة مهرجان كان لعام ٧٦ .



المجموعة الثانية

الحرب وماحولها

● «لأننى لست فى الحزب.. فهذا معناه أننى لست رجلا»!

من فيلم «يوم خاص» للمخرج «أيتورى سكولا».

● «أنها حرب بلا سبب.. لقد ذهبت لأقاتل من أجل لا شىء.. وهذه مسألة مهينة»!

من فيلم «العودة إلى الوطن» للمخرج «هال آشبى».



يوم خاص

أبطال هذا الفيلم ثلاثة فقط: رجل .. وامرأة.. وراديو!!

والثلاثة موجودون على الشاشة طوال مدة عرض الفيلم.. يشكلون عالما شديد الوطأة من الأحساس بالاضطهاد والتعسف.

رجل وامرأة.. يلتقيان فجأة ذات يوم.. ليكشف الرجل أنه رجل وتكشف المرأة أنها امرأة.. بينما صوت الراديو يذبح فى كل لحظة، مشاعرهما وآدميتهما!

فالراديو هنا هو صوت الواقع المر، الذى لا يكف عن أعلانهما بأنهما «نفاية المجتمع».. ولا يكف عن محاصرتهما!! وفى كل محاولة يقومان بها للهروب من هذا الحصار الوحشى، واسترداد آدميتهما.. يطغى صوت الراديو ليضيق الخناق عليهما!!

وعندما يكف الراديو.. تنتهى لحظات اللقاء بين الرجل والمرأة. ويفترقان بسرعة، وبذعر واضح، ويعود كل منهما إلى حياته.. وقد ازداد أحساسهما بوطأة ما يحدث حولهما.. ولا مفر!!

وهذا الفيلم الإيطالى، البالغ الروعة، يتناول بمهارة شديدة هذه اللحظات الحاسمة فى حياة الإنسان عندما يكتشف مشاعره التى ذبلت وتحجرت بفعل الظروف العامة، والحياة الموحشة.

اسم الفيلم «يوم خاص».

وهو بالفعل يوم خاص فى تاريخ إيطاليا، وفى تاريخ العالم أيضا.. وهو «يوم خاص» فى حياة رجل وامرأة، كل منهما ضحية النظام السياسى.

أنه مجرد يوم.. والفيلم تدور أحداثه فى هذا اليوم فقط.

اليوم هو ٦ مايو ١٩٣٨ ... وإيطاليا تحتفل بوصول «ادولف هتلر» واستقبال «موسولينى» له.. والعاصمة الإيطالية روما، تخرج كلها فى استعراضات عسكرية للترحيب بالزعيم النازى.

والفيلم يبدأ بجزء تسجيلى مختار من اللقطات الأخبارية التى صورت هذا الحدث التاريخى، لحظة وقوعه.. هتلر بكل جبروته، وغروره المجنون.. موسولينى وأعضاء الحزب الفاشيستى الإيطالى يتسابقون لتقديم الولاء.. الأطفال الإيطاليون الذين جندهم الحزب والبسهم القمصان السوداء، ولقنهم الهتاف النازى واستعراض القوة.. وجموع رهيبة من الإيطاليين رجال وشباب ونساء.. وقد ساقهم الحزب الفاشيستى، كالقطيع المخدر، ليملئوا الشوارع والميادين التى يمر بها موكب هتلر وموسولينى، رفعوا أعلام

النازية، وارتدوا أربطة العنق الدالة على الحزب الفاشيستى، وانطلقوا فى هتاف متواصل!!

لقطات تاريخية تسجل حالة أغماءة العقل.. وقدرة الحزب الفاشيستى على السيطرة الغاشمة على الشعب الإيطالى!

وينتهى الجزء التسجيلى الذى نقل وقائع بداية هذا اليوم التاريخى.. لتبدأ أحداث الفيلم.

الوقت.. فجر هذا اليوم.

المكان.. أحد بلوكات المنازل فى حى المساكن الشعبية الإيطالية.. والكاميرا تتبع هذه الأم (صوفيا لورين) التى تستيقظ بسرعة.. وتجرى داخل غرف منزلها لتوقظ أبناءها وبناتها الستة.

وتحاول إيقاظ زوجها هذا الرجل الممتلىء الجسم والذى يبدو عليه الغباء والبلادة العاطفية.. يقوم الزوج من فراشه ليلعب بعض التمرينات الرياضية، فيبدو أكثر غباء .. تنظر إليه الزوجة وكأنما ترثى لنفسها ثم تسرع لأن تضع على سرير كل ابن من أبنائها، ملابسه التى كوتها بنفسها.. ثم تنطلق إلى المطبخ لتعد لهم طعام الأفطار.

الكاميرا تستعرض فى مشاهد سريعة، أبناء هذه الأم.. واحدا منهم يضع صورة عارية لامرأة تحت مخدته.. أبنا آخر صغير

السن، يدخن سيجارته فى تواليت ويحاول طرد الدخان حتى لا يكتشفه أحد.

فتاة ترتدى ملابسها الداخلية وتحاول أن تبرز استدارة صدرها.

الأم تصرخ فيهم منبهة أن الوقت يمضى وتدخل لغسل وجه أصغر أبنائها.. وتمشيط آخر.. ومساعدة المتلكئين فى ارتداء ملابسهم ووضع شارات الحزب على أذرعتهم.. وربط مناديل الحزب حول أعناقهم.

أنها دينامو البيت.. يبدو عليها التعب والإرهاق.. ولكنها لا تكف عن الحركة وهى تخدم الجميع.. أما الزوج فلا يبالى بشىء.. إنه يجلس على مائدة الأفطار ويتمتم بسعادة شديدة: «سيكون هذا اليوم.. يوما عظيماً»!

ينتهى الجميع من أفطارهم ـ ما عدا الأم التى تقف لترعاهم حتى ينتهوا ـ يخرجون من البيت.. لنشاهد أن جميع السكان مع أبنائهم يخرجون من بيوتهم.. وكلهم يرتدون ملابسهم الحزب.. القمصان السوداء وأربطة العنق.. ويرفعون أيديهم لتحية بعضهم.. بالتحية النازية.

تبدو ساحة المساكن الشعبية.. وكأنها ساحة مدرسة وقت انصراف التلاميذ.. مجاميع هائلة من البنات والأولاد يخرجون من بيوتهم.. وسيدة عجوز تقف على مدخل الطريق.. تحيى

الجميع بالتحية النازية.. وتتمنى لهم يوما عظيما.. هذه السيدة ترتدى أيضا ملابس الحزب.. وإن كانت مهمتها تبدو وكأنها حارسة هذه المساكن.. أو أحد عيون الحزب وراصدة لتحركات السكان!!

يخرج الجميع.. يخلو المكان تماما، وينعدم الصوت.. تدور الكاميرا حول حارسة هذه المساكن وقد أحضرت جهاز الراديو.. وجلست بجواره على مدخل الطريق.. تدير الراديو.. فينبعث صوت المذيع وهو يصف الاستعدادات لاستقبال هتلر.. وصوت الراديو عال جدا.!

نعود إلى بيت الأم (صوفيا لورين).. وقد خلا البيت تماما إلا منها.. هى يبدو عليها الأعياء الشديد.. وجهها ممصوص شعرها مهوش.. فى عينيها ذبول وانكسار تنظر حولها فتجد أكوام الأطباق والفناجين التى تحتاج للغسيل.. تتمتم بضيق: «هذا البيت مفروض أن يخدمه ثلاث أمهات»!.. ترتمى على أحد مقاعد المطبخ، من شدة الإرهاق.. تشرب بقايا بعض فناجين الشاى التى تركها أولادها.. ينطلق صوت «الببغاء» الذى تحتفظ به فى قفص، بأحد أركان المطبخ.. الببغاء ينادى اسمها.. تثور هى لأنه ينطق اسمها خطأ.

«حتى أنتِ.. لا تعرف نطق اسمى.. اسمى انتونيتا.. قل انتونيتا..» الببغاء لا يرد.. تقدم له غذاءه.. تفتح باب القفص..



فينطلق الببغاء هاربا.. طائرا من القفص.. ومن المطبخ كله.. ويحط على إحدى نوافذ العمارة المقابلة لها.. تصبح هي في فزع وود.. محاولة أرجاع الببغاء.. ولكن الببغاء لا يستجيب لنداءاتها.. تحاول لفت انتباه الرجل الذي يجلس خلف النافذة التي حط عليها الببغاء. ولكن الرجل لا ينتبه لها.. إنه مشغول بكتابة عناوين على خطابات كثيرة.. إنه «مارشيلو ماستروياني»، الذي جلس على مكتب صغير وقد ازدحم بالأوراق والكتب.. يتأمل ما يكتبه.. ثم ينظر للصورة العائلية التي يضعها على مكتبه.. وفجأة يثور.. ويلقي كل شيء على الأرض.. باب شقته يدق.. يفاجأ هو بالدقات.. يرفع بسرعة الأوراق من على الأرض.. يسرع بالبحث



عن مسدسه فى درج مكتبه.. يحمل مسدسه.. ويفتح باب شقته بحذر.

على الباب تقف هى.. (صوفيا لورين) مازالت بملابس المطبخ وشعرها المهوش. تقول له بخجل شديد.. أن ببغاءها قد طار من قفصه.. وحط على نافذته.

يشعر هو بالارتباك، وعدم الفهم.. تستطرد هى محددة «نحن جيران..» وتشير إلى نافذته.. يدعوها للدخول.. ويساعدها فى التقاط الببغاء الهارب.. تتأمل هى المكان.. فلاتجد أحدا غيره تشكره على معاونته لها.. وتقول له «أتمنى لك حظا سعيداً مع عائلتك» يبتسم هو ولا يعرف كيف يجيب.. تستطرد هى وكأنها

تبرر وجودها فى البيت فى هذا اليوم التاريخى.. «لم أستطع الذهاب إلى الاستقبال الشعبى.. لأننى مشغولة بتربية أولادى الستة.. إنها عائلة كبيرة وتستحق الرعاية.. ولقد حصلت من الحزب على جائزة العائلات الكبيرة العدد» !!

يضحك هو.. ويحاول كسر جمود الموقف بدعوتها إلى فنجان قهوة يصنعه لها.. تسكت.. يذهب هو لصنع القهوة تتأمل هى مكتبته المليئة بالكتب.. تسأله فى دهشة!! هل قرأت كل هذه الكتب؟!

يرد عليها بسرعة: «تقريبا».

هى تحاول ألا تبدو فضولية.. ولكنها تلاحظ وجود بعض علامات بالطباشير على أرضية الغرفة.. يسارع هو بالتفسير.. ويقول أنه يحاول أن يتعلم أصول رقصة «الرومبا».. وينطلق نحو «البيك آب» الموجود فى غرفته.. ويدير أسطوانة رقصة الرومبا.. ويتحرك على خطوط الطباشير التى رسمها على الأرض.. ثم يسحبها من ذراعها.. ويدعوها المشاركة فى الرقص.. وتتحرك هى على خطوط الطباشير وعلى صوت الأسطوانة.. وتضحك بشدة.. ويضىء وجهها بالسعادة ولكن صوت المارش العسكرى الذى ينطلق من راديو السيدة العجوز التى تجلس على مدخل المساكن.. يطغى على صوت الاسطوانة.

المذيع فى الراديو.. يعلن أن جميع محطات الإذاعة فى إيطاليا وألمانيا قد انضمت لتذيع هذا الاستقبال التاريخى.. وينطلق صوت المذيع المتحمس وهو يصف الاستعداد لاستقبال هتلر.

تستيقظ هى من سعادتها على هذا الصوت.. فتعتذر منه.. وتنصرف مسرعة إلى بيتها.!

هى فى بيتها.. تحاول ترتيب البيت.. وقد بدأ عليها بعض النشاط!

هو فى بيته.. يتحدث فى التليفون مع أحد أصدقائه ويقول: «إنه يشعر اليوم بأنه يوم خاص فى عمره.. ويتمنى أن يحكى لأى أحد عن حياته»!

يراها من نافذته.. لقد اكتشف وجودها.. ويبدأ يتابعها من نافذته.. وهى أيضا بدأت تسرق النظرات عليه من نافذتها.

يسرع هو إلى شقتها.. يدق الباب.. فتفتح هى لتفاجأ به وفى يده كتاب.. يقول لها مبررا وجوده: «لقد أحضرت لك كتابا مسليا من مكتبتى».

تنظر له بفضول.. ثم تدعوه للدخول إلى شقتها.

هى فى منتهى الارتباك.. تحاول أن ترتب البيت بسرعة.. وتقول له: «هل تشرب فنجانا من القهوة» يرد بالإيجاب وبسعادة

شديدة.. ولكنها تكتشف أن البن المطحون قد نفذ من عندها.. فتطلب منه أن يساعدها فى طحن كمية من البن.. يوافق بسرعة.. ويبدأ فى طحن البن.. وتنتهز هى هذه الفرصة لتذهب إلى المرآة وتنظر إلى نفسها.. وتحاول أن تسوى شعرها وتعدل من فستان المطبخ الذى ترتديه.. وتكتشف أن وجهها ذابل وأصفر.. فتقرص خدودها حتى تحمر قليلا.. بينما هو مشغول بطحن البن وتأمل البيت.. فجأة ينطلق من الراديو صوت المدافع تحية لوصول هتلر.. فيرتبك هو.. وتقع حبات البن من المطحنة الصغيرة.. ويحاول جمعها من على الأرض فى سرعة شديدة.. ويدق باب المنزل!

تسرع خائفة، مرتبكة.. لتفتح الباب فتجد السيدة العجوز التى تجلس فى مدخل المساكن. السيدة العجوز تقول لها: «أن الرجل الموجود داخل شقتك.. رجل غريب الأطوار وأنا أحذرك منه»!

وتفاجأ انتونيتا (صوفيا لورين) بهذه الكلمات.. وتكتشف أن جارها (ماسترويانى) قد سمع السيدة العجوز. فتعلق (صوفيا لورين) بارتباك: «يبدو أن السيدة قد رأتك وأنت تدخل بيتى»!

يقول بضيق: «أنا مستعد أن أغادر البيت فوراً..» ثم يعلق ساخرا: «إن الإنسان منا لابد أن يخضع لطريقة تفكير الآخرين»!

تحاول أن تخفف من ضيقه.. تقول له: «أنك رجل مهذب وأنا لا أخاف منك».. يبتسم لها ويجلس يتأمل المكان وهو ينظر لها

بامتنان.. تحاول أن تتجنب نظراته، وأن كانت تتمنى ألا تفقده.. تقول كأنها تذكرت شيئًا.. إن القهوة تركتها على النار.. وتسرع إلى داخل المطبخ وهى تتلصص بنظراتها عليه، وتخفض من شدة لهب البوتاجاز، حتى يطول الوقت، وتستبقيه أطول فترة ممكنة.. تعود إليه.. وتحاول أن تفتح مجالاً للحوار.

تسأله: ماذا تعمل؟

يقول لها بسرعة.. أنه مذيع فى الراديو.!

ثم فى محاولة لقطع استمرار الأسئلة.. ينطلق ليركب دراجة أحد أبنائها الصغار. ويجرى بها داخل الشقة.. يصيح فى فرح طفولى.. وتتأمله وهى تضحك!

(صوت الراديو يبدو عاليا جدا.. والمذيع يعلن فى حماس بالغ كيف احتشد الألوف فى الاستقبال.. هناك مايزيد عن نصف مليون شخص).

تنظر إليه وقد جلس صامتا على أحد المقاعد.. تقول له: «يبدو عليك أنك غير سعيد»!

لا يعلق.. ويقف ليتأمل أحد رفوف الحجرة.. ويلتقط ألبوما ضخما مليئاً بصور وعبارات لموسولينى.

تقول له: «إنها صنعت بنفسها هذا الألبوم.. فهى معجبة جدا بموسولينى».

وتحكي.. كيف شاهدت موسوليني في أحد المواكب وشعرت أنه ينظر إليها.. فأغمي عليها من شدة الفرح.. ولكنها عندما ذهبت إلى البيت اكتشفت أنها حامل.. وأن الأغماء كان بسبب الحمل!!.

يبتسم هو.. ولا يعلق!!

الباب يدق مرة أخرى. لتجد نفس السيدة العجوز التي تبادرها قائلة: هل الرجل مازال موجودا عندك؟

ترد بارتباك: «نعم.. إنه يصلح لي لمبة المطبخ»!

فتقول لها السيدة العجوز بلهجة حاسمة: «لا تدعيه يدخل بيتك.. إنه رجل ضد الفاشية.. ومفصول من عمله لأنه غير منضم للحزب»!.

ترد صوفيا بذهول: «ولكنه رجل مهذب»!!

تستنكر السيدة العجوز هذا الأسلوب وتقول بعصبية: «رجل مهذب أو رجل غير مهذب.. المهم أنه غير منضم للحزب»!!

وتكرر تحذيراتها منه.. وتنصرف.. وتفاجأ صوفيا بهذه المعلومات الجديدة.. وعندما تدخل لتبحث عنه.. تجده واقفا على كرسي ليصلح لمبة المطبخ.. تسأله ماذا تفعل.. يجيب بأنه يفعل ماقالته للسيدة العجوز.. تبادره بسؤال حاسم لماذا فصلت من عملك؟ يقول بسرعة.. «لأن صوتي لم يعد صالحا لألقاء بيانات الحزب»!



لا تقنع هى بالإجابة.. وقد بدأ الشك يساورها.. تستأذن بأنها مشغولة فى ترتيب البيت.. وعليها الآن أن تصعد إلى سطح المبنى لجمع غسيلها.. يصعد وراءها.

تجمع الغسيل بسرعة.. يقف أمامها ويقول.. «أنت أيضا يبدو عليك أنك غير سعيدة».. كلماته تهدىء من توترها.. تطلب منه أن يساعدها فى تطبيق الملاءات المغسولة.. ينتهز الفرصة ويضمها داخل الملاءة.. تضحك هى من هذا الموقف المفاجئ.. فيعلق قائلا «أنك أجمل عندما تضحكين».. ترد بسرعة وبخجل «هذا الأمر نسيته منذ زمن طويل».. وتكتشف أنها تمادت فى علاقتها به، فتتجهم. وتشخط فيه.. «اسمع.. لقد زهقت من هزارك.. ومحاولاتك المستمرة معى.. مرة الكتاب.. ثم القهوة..



ثم تحتضنني في الملاءة.. هذا غير محتمل.. أنا لا أعرف ماذا تريد مني.. من الجائز أن الوسط الذي تعيش فيه يسمح بذلك.. وسط الممثلات والفنانات.. ولكن أنا لا أرضى بهذا»

يقف مذهولاً من هذه الحيرة والعصبية لا يتحرك.. يبدو عليه الانكسار والضيق تشعر هي أنها أهانته.. تحاول أن تعتذر تمسك يده وتقبلها.. وتعترف: «أنا غاضبة من نفسي.. لأنه منذ الصباح وأنا أحس بأنني اقترب منك.. وهذه أول مرة في حياتي يحدث لي هذا.. صدقني»!

هو يقف صامتا تماما.. لا يتحرك.. هي تنظر له بحب وعطف وحنان..ويشعر هو أن الوقت قد حان للاعتراف:

«أنا وحيد تماما.. لا زوجة.. ولا عائلة.. ولا صديق.. بالنسبة لعملي فهم لم يفصلوني بسبب صوتي.. إنما قالوا عني أنني رجل شاذ وانهزامي.. وهذا صحيح»!

تفاجأ هي باعترافه.. فتضربه بالقلم وتجري على السلم.. يجري وراءها ويصرخ بعصبية.. «أنا لست الرجل الذي توقعتيه.. أنا شاذ.. وأنت جاهلة..»..

صوته يدوي على السلالم.. وصوت الراديو يذيع المارشات العسكرية!!

تجري إلى بيتها.. ويدخل هو بيته!

هو فى مطبخه يصنع عجة البيض.. الباب يدق.. يفتح.. فيجدها واقفة وقد أعطته ظهرها.

يدعوها للدخول ومشاركته غذاءه.. تعتذر هى عن خشونتها معه.. يجلسان على مائدة المطبخ.. وصوت الراديو يعلن عن خطبة موسولينى والهتاف الشديد له.. صوت الراديو كأنه يفصل بينهما بجدار سميك!

يحاول هو كسر حاجز الصمت بينهما.. فيحكى عن الفتاة التى قرر خطبتها حتى ينفى عن نفسه تهمة الشذوذ.. ولكن الفتاة سمعت هذه الأشاعة فتخلت عنه.. ويعلق قائلا: «لأننى لست فى الحزب. فهذا معناه أننى لست رجلا.. وفكرت أن أعرض نفسى على الأطباء.. ولكنى قلت لنفسى أنه من غير المعقول أنى أسير بشهادة طبية فى جيبى تعلن أننى غير شاذ».

يبدو عليه الضيق الشديد، وهو يحكى حياته.. هى تحاول أن تخفف عنه هذا الإحساس، فتحكى أيضا عن حياتها:

«أشعر فى أحيان كثيرة بأننى لا شىء.. وأحس بالإهانة عندما أفكر فى حياتى.. فزوجى لا يتكلم معى.. أنه يأمر فقط.. منذ أيام الخطوبة ونحن لم نضحك معا.. أنه دائما يعاملنى كجاهلة.. صحيح أنا لا أقرأ الكتب.. ولكنى إنسانة..»



تبكى بحرقة.. وصوت الراديو يعلن عن خطبة «هتلر».. صوت هتلر يرتفع قويا حادا كأنه يمزق كل شيء.

تقترب منه.. تقول له «أشعر بالراحة بجوارك.. أحبك».. يسألها بانكسار: «هل تحبيننى بعد ما قلته لك عن حالتى». ترد بثقة وحب «هذا لا يهمنى».. وتقترب منه أكثر وتحتضن رأسه فى حنان بالغ.

صوت الراديو عاليا يردد الهتاف المتشنج لهتلر.. والمذيع يصف ما يحدث فى نبرات انفعالية ملتهبة.

هى على الأرض بجواره.. تقبل جبينه.. عينيه.. تمسح شعره بحنان.. هو ساكن تماما.. جسده متخشب.. تبكى وهى تقبله.. وتتحرك أناملها على جسده كأنها تعيد له الحياة. يبدأ جسده فى الاستجابة.. ويذوبان معا.

تقول هى فى سعادة: «لا أشعر بأى ندم.. لم يحدث لى هذا فى حياتى من قبل»!

يقول هو: «أن هذا لا يغير شيئا فى حياتى.. إنما أهم ما حدث لى.. أننى تكلمت معك.. وهذا وحده يكفينى»!

يقطع مناجاتهما.. أصوات جلبة شديدة.

لقد بدأ السكان يعودون من الاحتفال.

تسرع هى مذعورة.. تقبله.. وتجرى لتصل إلى بيتها.

الأولاد والبنات العائدون من الاحتفال.. تبدو عيلهم السعادة.. والسيدة العجوز تستقبلهم بحرارة وتهنىء كلا منهم.. وأحدى الفتيات تقول بلذة شديدة «لقد استمتعت بكل لحظة من الاحتفال»!

العائلة تجتمع على مائدة العشاء.. صوفيا يبدو عيلها الصمت وكأنها عزلت نفسها عن أصوات أبنائها وثرثرة زوجها الذى يقول بفخر عظيم موجها كلامه إلى أبنائها «بعد عشرين عاما.. ستحكون لأولادكم أنكم كنتم موجودين فى هذا اليوم التاريخى»!

هى شاردة تماما.. لا تتكلم.. عيناها تراقب بين الحين والآخر ما يحدث خلف نافذة جارها.

ينتهى العشاء.. تبدأ مهمتها فى غسل الأطباق.. يداعبها زوجها ببلادة.. وهو يتجشأ:

ـ ما رأيك أن نحتفل بهذا اليوم العظيم.. ونخلف ولدا ونسميه «أدولف»!

تعتذر بأنها مرهقة.. فيقول «فلنؤجلها للغد».. ويدخل فراشه وينام!

هى فى المطبخ.. تسحب الكتاب الذى أهداه لها.. تجلس بجوار النافذة تراقب نافذته.. تراه يجمع أوراقه.. وتلمح شخصين يقفان خلفه.

هو فى بيته.. أعد حقيبته.. ويقول للشخصين اللذين ينتظرانه أنا مستعد الآن».. يقولان له أن المركب ستغادر الميناء بعد ساعتين.. خذ وقتك فى تجهيز أشيائك.. ينظر إلى غرفته.. يحمل حقيبته.. ويطفىء الأنوار.. ويخرج وواره الرجلان.. وينظر ناحية نافذتها.

هى تشاهد ما يحدث من نافذتها.. تتعقب نزوله على السلم.. حتى يختفى.

هى وحدها فى النافذة.. تنظر للكتاب فى يدها.. ثم تغلق النافذة.. وتذهب إلى فراشها بجوار زوجها!

تظلم الشاشة.. وينتهى الفيلم.

لقد انتهى اليوم الخاص.

اليوم الذى شهد وصول هتلر إلى روما لتوقيع اتفاق حلف برلين - روما مع موسولينى.. أنه يوم اجتماع رجلين مجنونين واتفاقهما المشئوم الذى لوث وجه العالم فى عام ١٩٣٩ بالحرب العالمية الثانية. وهو نفس اليوم.. الذى يلتقى فيه اثنان من «نفاية» المجتمع.. رجل وامرأة.

رجل معاد للفاشية.. فاضطهدوه وفصلوه من عمله وأخيرا قرروا اعتقاله فى جزيرة مهجورة حيث كل الشواذ مثله الذين لم يوافقوا على الانضمام للحزب.

وامرأة.. جعلها النظام الفاشيستى.. تضحى بكل مشاعرها من أجل أن تخدم الحزب.. فهى الأرنبة التى تلد الأطفال ليكونوا أبناء الكشافة الحزبية.. ومهمتها أن تخدمهم وتخدم زوجها فى الفراش كلما أراد.. حياة جافة ليس فيها من متعة سوى المتعة التى أرادها أيضا الحزب.. أن تجمع صور موسولينى.. وكلماته!

ويأتى هذا اليوم الخاص.. ليكون بمثابة «عودة الروح» إلى هذا الرجل.. وهذه المرأة.

حيث تكتشف المرأة أن هناك فى العالم، من يعاملها. كامرأة لها مشاعر وأحاسيس، وأن هناك من يهتم بها كإنسانة.

وحيث يكتشف الرجل.. أن هناك من يستمع إليه.. ولا ينفى وجوده، لأنه له رأى مضاد فى الحزب!

وهذا الفيلم الذى أبدع فى تقديمه المخرج الايطالى «أيتورى سكولا» معتمدا على براعة اثنين من أكبر نجوم السينما الايطالية، شريط صوت تسجيلات الإذاعة الإيطالية لهذا اليوم المشهود. هذه العناصر الثلاثة، صدع من خلالها فيلما شديد الرقة والعذوبة.. وشديد الوضوح من وجهة نظره المعادية لأسلوب القهر السياسى، الذى يعامل الجماهير وكأنها قطيع من الاغنام، تم غسيل مخها بوسائل الإعلام وبالذات الإذاعة.. حتى تحولت إلى أدوات مطيعة.. لا تفكر!

ولتأكيد هذا المعنى.. لجأ المخرج الإيطالى. إلى أسلوب فنى متميز.. فقد ألغى وضوح الألوان فى الفيلم.. وكسى الصورة باللون الأزرق والرمادى بدرجاته المختلفة، للإيحاء أكثر بعدم بهجة هذه الحياة وكآبتها وذبولها النفسى.. وجعل ممثليه لا يغيرون ملابسهم.. صوفيالورين بفستان المطبخ المهرول طوال الفيلم. وبلا ماكياج تماماً!

وفى حديث صحفى أدلت به صوفيا لورين قالت عن شخصيتها فى هذا الفيلم وأسلوب المخرج معها «لقد كانت عملية تغيير كاملة لشخصيتى.. فالمخرج سكولا لم يساعدنى لكى أكون طبيعية، كما أنا.. بل كان يريدنى أن أكون العكس.. كانت تعليماته لى التى يكررها دائما «أريدك أن تشعرى أنك أقل وأقل».. ولقد وضعت نفسى تماما تحت تصرفه.. فأنا معجبة بأفلامه واثق فيه.. وبالفعل

وجدت نفسى كل يوم أتنازل عن جزء من شخصيتى.. وملابسى ومكياجى.. ولذلك كنت ألعب هذا الدور وكأنه أول دور لى على الشاشة»!

والمخرج «أيتورى سكولا» مولود عام ١٩٣١ .. وقد عاش هذا «اليوم الخاص» وكان وقتها لم يتجاوز السابعة من عمره.. يقول:

«لابد لى أن أعترف.. بأننى شاركت بشكل بسيط جدا فى استقبال هتلر، الرئيس الأعلى للرايخ الثالث، عند زيارته لروما فى مايو ١٩٣٨ .. كنت يومها عضوا بالتبعية فى التنظيم الفاشيستى الذى يضم الأطفال أجباريا من سن عامين إلى سبعة.. ومن هنا كان لى حق استقبال هذا الضيف الكبير»!

وعندما يتحدث المخرج عن هذه الفترة من خلال معايشته لها، وقراءاته عن كل تأثيراتها.. يقول فى تأكيده على أن يكون صوت الراديو هو أحد الأبطال الثلاثة لفيلمه:

«كان الراديو هو السلاح الأقوى من كل أسلحة الأعلام التى استخدمها النظام الفاشستى.. فالراديو هو السلاح المخلص المطيع و«صوت سيده» الذى يقوم يوميا بتغذية المواطن بالتعليمات وبنائه حسب المواصفات المطلوبة»!

والمخرج «ايتورى سكولا» درس القانون فى جامعة روما، وعمل بالصحافة، وبرع فى إجراء اللقاءات الهزلية.. ثم اتجه

للكتابة للاذاعة .. ومنها إلى كتابة السيناريوهات للافلام التى يخرجها هو فقط .. وقد بدأ فى الإخراج عام ١٩٦٤ .. وأخرج خلال هذه الفترة اثنى عشر فيلما .. وفاز بجائزة الإخراج فى مسابقة مهرجان كان لعام ١٩٧٦ . عن فيلمه (بشعون .. أقذار .. أشرار) .

وكان فيلمه الأخير (يوم خاص) مفاجأة فنية للنقاد الذين حضروا وتابعوا مهرجان كان لعام ١٩٧٧ .

العودة إلى الوطن

«لقد انتهت حرب فيتنام منذ خمس سنوات.. وهى فترة كافية لتأمل هذه المأساة.. مأساة هؤلاء الذين اشتركوا فيها على أرض فيتنام.. ومأساة هؤلاء الذين حولهم على الأرض الأمريكية»!

هكذا قدمت الممثلة «جين فوندا» فيلمها الذى لعبت بطولته، وشاركت فى تمويله، وتدخلت فى بلورة فكرته الأساسية، وجمعت مادته من خلال لقاءاتها مع الجنود العائدين من هذه الحرب، وحملاتها السياسية العنيفة لوقف هذا العار.. إنها تقول:

«لقد اتخذت قرارى بالمشاركة فى هذا الفيلم.. عندما شعرت أنه من خلال دورى يمكننى أن أقول الحقيقة التى يجب أن تقال»!

الفيلم اسمه «العودة إلى الوطن» للمخرج «هال آشبى» الذى تعمد ألا يضمن فيلمه أى مشاهد عن الحرب فى فيتنام.. وإنما قدم أنعكاسات هذه الحرب على الأرض الأمريكية.. وداخل الأسرة الأمريكية.

الجامعة.. فتجده مربوطا من يديه وصدره فى أعمده السرير، لمنعه من الحركة والهياج.. ينظر لها بلا مبالاة أنه لا يتذكرها.. وهى تحاول أن تكون رقيقة معه.. ولكنه يقابلها باستفزاز مثير فتتمالك أعصابها وتمد يدها لتمسح بقايا الطعام العالقة بذقنه.. ينظر للأسم المكتوب على صدرها، ويناديها باسمها وهو يسخر منها.. تتمالك أعصابها أكثر، وهى تسأله منذ متى كانت أصابته؟ فيرد باستخفاف ومرارة.. «منذ زمن طويل فى فيتنام».. تقول له كأنها تشاركه المصير: «إن زوجى هناك الآن».. فيعلق بسخرية «أنه وغد»!

تفاجأ بالإهانة.. ولكنها تقدر موقفه لإصابته.

وتتكرر لقاءاتهما معا.. إنه دائما ساخط ناقم على كل شىء.. وهى دائما تحاول أن تبدو رقيقة وهادئة.. ولكنها فى إحدى المرات وهى تحدثه عن زوجها، تفاجأ، برد فعله العنيف وهو يصيح فيها: «ما الذى جاء بك إلى هنا.. لماذا لا تذهبين إلى مكان آخر».. ويندفع بكرسيه المتحرك فى ردهات المستشفى وهو يلعن الجميع.. تجرى وراءه وهى تصيح بغضب: «لماذا أنت بهذه الفظاظة»؟!

لقد أصبح عملها فى المستشفى يشغل كل وقتها واهتمامها، وأصبح هذا الشاب العاجز الساخط، قضيتها الشخصية، إنها تحاول إعادته إلى توازنه الطبيعى واحتمال كل غضبه فى مقابل أن يهدأ ويبتسم!

وتكتب خطابا لزوجها تخبره بعملها التطوعى فى المستشفى.. وكيف تقضى يومها حتى تعود منهكة فى آخر الليل إلى بيتها، لتستعدلليوم التالى.. ولكنها سعيدة بما تفعله.

ويزداد وعيها بما يحدث حولها.. وتشعر بأن واجبها أن تنبه للمذبحة التى تجرى فى فيتنام.. وتذهب بانفعالها النقى.. إلى نادى الضباط الذى تتجمع فيه عائلات الضباط الذين رحلوا للقتال فى فيتنام.. إنها تخطب فى زوجاتهم وترفع يدها بصور تسجل ضحايا الحرب وبشاعة ما يجرى هناك.. أنها تتحدث بانفعال وصدق ومرارة.. ولكن النساء اللاتى يحضرن الاجتماع يبدو عليهن عدم الاهتمام.. وينظرن لها فى بلاهة.. وتحاول أن تستثير حماستهن وتطالبهن بالتوقيع على بيان حول وقف الحرب.. ولكنها تفاجأ بتهربهن من التوقيع وبموجة من الأسئلة التافهة.. فتجمع أوراقها والصور وتخرج غاضبة.

إنها تشعر بالعجز لإخفاقها فى إثارة رأى عام حول مأساة الحرب.. ولكنها تجد راحتها فى مستشفى التأهيل.. هناك تشعر أنها تؤدى دورا، مهما كان حجم الدور وفاعليته، إلا أنها تفعل شيئا أزاء ما يحدث!

هناك فى المستشفى.. تجد هذا الشاب العاجز ينتظرها.. لقد بدأ ينتبه لها.. وأصبح أكثر وداعة وهدوءا.. أنه يقترب منها بكرسيه المتحرك، ليساعدها فى دفع سرير أحد المصابين.. تنظر له

بامتنان وتقول أنه يستحق أن تدعوه لتناول العشاء معها فى بيتها.. وتضيف مبتسمة.. «لاتقلق..أنا طباخة ماهرة».. ويضحك هو فى سعادة غامرة وحب.

وتزور المستشفى أحدى فرق الترفيه عن المصابين.. موسيقى وغناء ورقص ومسابقات. وتقام مسابقة للجرى بين مصابى الكراسى المتحركة.

وهو موجود بين أصدقائه وزملائه المصابين، يدفعهم للمسابقة بحيوية ومرح وهى موجودة تشارك الجميع فى لهوهم ترقص وتغنى فى خفة وانطلاق.

وصديقتها موجودة بجوار أخيها المنهار عصبيا.. تحاول أن تدفعه بحب لأن يمسك جيتاره ليعزف عليه، ويغنى، كما كان يفعل زمان.. والأخ يبدو شارد النظرات، وكأنه يحاول أن يعتصر نفسه ليعود إلى حالته الطبيعية.. ترتعش يداه على أوتار الجيتار.. ويخرج صوته مخنوقا.. يصفقون له تشجيعا.. ولكنه ينهار فى بكاء يمزق القلب.. ويأتى مسرعا هذا الشاب العاجز على كرسيه المتحرك، ليربت على كتفه.. فيرتمى الأخ بين ذراعيه فى بكاء متشنج.. ويرقب الجميع هذا الموقف بتأثر بالغ.. وتعود للذهن فورا، بشاعة الحرب وما فعلته بهؤلاء الشباب.

وتتلاشى أصوات موسيقى فرق الترفيه.



وتساعد الزوجة (جين فوندا) صديقها الشاب العاجز (جون فويت) فى ركوب سيارتها للذهاب إلى منزلها لتناول العشاء.

إنه يتحرك بصعوبة شديدة.. ويتنقل على سلالم المنزل بكرسيه المتحرك وكأنه يشق الصخر.. حتى يصل إلى داخل البيت.. وما أن يصبحا بمفردهما، حتى يبدو عليها الخوف والارتباك.. تحاول أن تخفى مشاعرها ولكنها لا تفلح.. ويلاحظ هو ارتباكها.. يسألها فى حنان: «لماذا أنتِ عصبية»؟.. وتبتسم بسرعة وهى ترد: «أنا .. لا.. أبدا» ..يقول لها: «أنا سعيد بوجودى هنا».. ترد بسرعة «وأنا أيضا».. يدفع كرسيه المتحرك فى أرجاء الصالة وهو يسأل: «ألا توجد موسيقى هنا»؟ تسرع بتشغيل جهاز الموسيقى..يتكلم هو

بصوت حنون مؤثر، وكأنه يرثى لحالته «أحلامى كلها بالليل بدون هذا الكرسى.. هل تعرفين أننى عندما كنت طالبا.. كنت أستطيع القفز حتى ألمس السقف»!

يزداد ارتباكها مع صوته وذكرياته.. تسرع لتجهيز مائدة العشاء.. يجلسان فى مواجهة بعضهما.. يقول لها بحنان وشوق بالغ: «جزء كبير من أحلامى فى المستشفى أن احتضنك».. ترد بلباقة وحياء: «لم أخن زوجى أطلاقا»!

يشعر بجرأته وتورطه فى إبداء مشاعره فينكس رأسه ليواصل طعامه.. ويغير الموضوع.

وتنتهى الزيارة.. وتوصله إلى المستشفى.. أنه سعيد جداً بوجودها بجواره.. وهى أيضا تشعر معه بالحنان والفهم.

عندما تصل بسيارتها إلى باب المستشفى يصر هو ان يحملها على كرسيه المتحرك حتى داخل المستشفى.. فى سعادة غامرة يحتضنان بعضهما وهو يدفع الكرسى المتحرك بقبضة يده، ليمر عبر ردهات المستشفى حتى يصل إلى سريره.

وتخرج من عنده وقد امتلأت بالحيوية.

لقد حرك هذا الإنسان العاجز شيئا ما بداخلها..

فى اليوم التالى تتلقى برقية من زوجها الضابط.. إنه سيقضى أجازته فى هونج كونج.. ويدعوها للقائه هناك.

تخبر صديقتها بهذه البرقية.. فتقول لها الصديقة أنها تلقت برقية مماثلة من خطيبها. ولكنها لا تستطيع السفر لارتباطها بعملها وبشقيقها المريض فى المستشفى.

وتذهب الزوجة إلى عملها اليومى فى المستشفى، لتجد صديقها العاجز فى حالة من السعادة.. ويخبرها أنه تقرر خروجه من المستشفى بعد عدة أيام.. وأنه عندما يعود إلى بيته سيدعوها للعشاء.
تقترب منه وهى تحاول أن تهون عليه خبر سفرها إلى هونج كونج لمقابلة زوجها هناك.. ولكن تأتى كلماتها لتصعق سعادته.. يبتعد بكرسيه عنها.. ثم ينسحب تدريجيا من أمامها وهو يقول لها «رحلة سعيدة».

تنظر له.. وتشعر بالالم الذى سببته له.. ولكنها لا تدرى ما الذى تفعله..

وتسافر إلى هونج كونج..

هناك فى هونج كونج تلتقى بزوجها. وتفاجأ بما حدث له.. أنه يبدو أكثر عصبية وتوترا.. يصرخ فيها دائما.. ويؤنبها بشدة لأنها تطوعت فى العمل بالمستشفى.



يصحبها زوجها إلى أحد المطاعم. إنه يتصرف بعصبية وكأنه لا يطيق أحدا.. يجلسان صامتين بينما الموسيقى تعزف ألحانا راقصة.. تلمح خطيب صديقتها، الذى يسرع بسؤالها لماذا لم تأت خطيبته معها.. تبلغه بما قالته صديقتها.. يغضب.. يتكلم بعصبية.. ثم يدعوها للرقص ولكن سرعان ما يتركها فى حلبة الرقص ويختفى غاضبا متأثرا.

تعود إلى المائدة التى يجلس عليها زوجها.. مازال فى حالته العصبية.. تحاول أن تسأله عما رآه فى فيتنام.. يرد بسرعة وبضيق: «لا أريدأن أتكلم عن فيتنام.. أو عن الحرب»!

وتجمعهما معا غرفة النوم فى أحد الفنادق.. يبدو الزوج أكثر توترا، وكأنه على وشك الانهيار!

لقد تغيرت أشياء كثيرة فى زوجها.. إنه يبدو كأنه شخص آخر لا تعرفه.. فى نظرات عينيه وكلماته العصبية، كل انعكاسات أهوال الحرب.

ويعود بنا الفيلم إلى مستشفى التأهيل للجنود المصابين.. هناك نرى الأخ الذى يعانى من الانهيار العصبى، وقد تدهورت حالته أكثر.. إنه يمسك بجيتاره فى عصبية ويحاول أن يعزف شيئا.. ولكن الأصوات تخرج نشازا، يلقى بجيتاره ويجرى مندفعا إلى غرفة الأدوية ويغلق الباب على نفسه بالمفتاح.. يلتف حوله زملاؤه فى ذهول ،ويدقون الباب عليه.. ولكنه لا يستجيب لأحد.. يسرع أحدهم للاتصال تليفونيا بصديقه الشاب العاجز الذى كان قد عاد إلى بيته بعد انتهاء علاجه بالمستشفى.. وما أن يسمع بما حدث حتى يهرع بكرسيه المتحرك إلى داخل سيارته.. ليقودها بسرعة إلى المستشفى ويعبر ردهاتها وسط انتظار وهلع باقى المصابين الذين يتحركون على كراسيهم والعاجزين عن فعل أى شىء.. يدق باب الغرفة التى أغلقها الأخ عليه.. ولكنه لا يسمع صوتا.. ينادى عليه.. ولكن لا إجابة.. يكسر باب الغرفة، ليكتشف وجود الأخ ملقى على الأرض وبجواره حقنة كبيرة.. لقد انتحر يأسا!!

ويصبح لهذه الحادثة المؤلمة ردود فعل عنيفة بالنسبة لشقيقته.. وبالنسبة لصديقه الشاب العاجز.

الشقيقة تسمع خبر انتحار أخيها من خلال مكالمة تليفونية، فتنهار حزنا.. وتحاول صديقتها الزوجة -(جين فوندا) التى عادت من هونج كونج، أن تخفف عنها ولكن الشقيقة تطلب منها أن يخرجا معا إلى أى مكان.. فهى لا تطيق الجلوس فى البيت.. يخرجان إلى أحد المراقص العامة وتتصرف الشقيقة بهيستريا واضحة.. ترقص.. وتشرب.. وتسلم نفسها لأول رجل يكلمها!!

إنها فى حالة من الانهيار الكامل.

وفى نفس الليلة نجد الشاب العاجز (جون فويت).. يذهب بكرسيه المتحرك إلى مركز استقبال المجندين للبحرية.. ويقوم بغلق ضلفتى الباب الحديدى الضخم، ثم يربط نفسه وكرسيه بسلاسل هذا الباب فى محاولة منه لمنع خروج المجندين إلى فيتنام.

ويسبب هذا التصرف ارتباكا شديدا.. ويأتى مندوب من التليفزيون ليصور هذا الاحتجاج على الحرب.. ويسجل للشاب رأيه الذى يعلنه بقوة، انه فعل هذا ليمنع خروج المجندين إلى ساحة الموت فى فيتنام ويلعن الشاب هذه الحرب والمسئولين عنها.

وينقل التليفزيون هذا الاحتجاج.

وتراه الزوجة (جين فوندا) وهى جالسة فى منزلها، فتسرع إليه بسيارتها.. وتقترب منه بهدوء.. تحاول أن تدفعه ليتخلص من

السلاسل التى قيد بها نفسه تهمس له.. «أريد أن أقضى الليلة معك» تروضه، تبتسم له فى حنان.. وتسحب كرسيه المتحرك بعيدا عن هذا المكان.

بينما هناك اثنان من المباحث الفيدرالية يراقبان ما يحدث.

لقد أصبح منذ الآن تحت المراقبة!!

فى بيته.. وهى معه.. يضمهما الفراش.. يقول لها: «أنت جميلة جدا».. ترد بامتنان شديد: «لم يحدث لى هذا من قبل».

ويتأكد ارتباطهما.

أنهما معا دائما.. فى الشارع وعلى شاطئ البحر.. وفى عمله الذى التحق به مشرفا على حمام سباحة للمعوقين.. إنها دائما بجواره تحيطه بالحب والحنان وهو معها يشعر بالأمان والاستقرار.

ولكنهما تحت المراقبة.. كل تحركاتهما مسجلة بالصوت والصورة!!

ويأتيها خطاب من زوجها يبلغها بموعد حضوره.. تبكى وهى تبلغه الخبر.. ويغالب احتياجه لها وهو يتمتم بتمزق: «سأفتقدك»!

ويأتى موعد زوجها.. تذهب للقائه فى المكان المخصص لاستقبال العائدين من جبهة القتال فى فيتنام.

الطائرات تفرغ حمولتها من صناديق الموتى.. وسيارات الأسعاف الممتلئة بالمصابين والجرحى.



إنه حصاد الحرب..

الموت.. والدم.. والعجز..

ويظهـر الزوج خـارجـا من إحـدى الطائرات وهو يعـرج على ساقه.. تسأله بقلق عما به.. يقول أنه قد أصاب نفسه بنفسه. إنه مازال يتكلم فى لهجة عصبية ووجهه جامد.. تقول له بفرح «لقد اشتريت سيارة جديدة.. واستأجرت بيتا على شاطئ البحر لنستريح فيه».. يعلق باقتضاب: «مفاجآتك كثيرة».. ثم يتمتم بضيق «اللعنة على الحرب».

يصل إلى البيت فيفاجأ بأنها زينت له البيت بالأوراق الملونة وعلقت لافتة كتبتها ترحب فيها بعودته.. ينظر حوله فى لامبالاة.. وتزداد عصبيته وثورته.. وينطلق خارجا بالسيارة تاركا إياها بمفردها فى البيت.. ليعود بعد فترة وهو فى حالة شديدة من السكر، ويصطدم بسيارته فى جدار البيت.. ويخرج من السيارة ومعه اثنان من أصدقائه الجنود الذين دعاهم لقضاء الليلة فى البيت!!

ويدخلون جميعا البيت وهم فى حالة من فقدان الوعى.. ويهجمون على زجاجات الخمر، ويعبثون بكل شيء.. وتنسحب الزوجة إلى المطبخ لتعد لهم طعام العشاء وهى حزينة جدا.. لقد تغير زوجها كثيرا ولم يحفل بمشاعرها.. حتى أنه فى ليلة عودته فضل أن يقضيها مع هؤلاء السكارى بدلا من أن يقضياها معا.

وتنام على أحزانها.. وفى الصباح تكتشف حالة العبث الشديد التى أصابت البيت.. وتجد أصدقاءه ينامون على مقاعد الصالة وزجاجات الخمر الفارغة تملأ المكان .. وتثور غاضبة ولا تجد ما تنفس به عن غضبها إلا أن تمزق اللافتة التى كانت قد كتبتها لترحب بعدة زوجها.

وعندما تذهب إلى سرير زوجها لتوقظه تفاجأ بأنه ينام وفى يده مسدس!!

هكذا فعلت به الحرب!!

ويجد الزوج استدعاء بالذهاب إلى المباحث الفيدرالية.. وهناك يطلعونه على ما فعلته زوجته فى غيابه.. ويعرضون عليه الصور التى سجلوها لها مع عشيقها هذا الشاب المعوق.

ويسرع الزوج للقاء هذا الشاب ليبلغه بافتضاح أمره.. ولكن الشاب يقابله بهدوء شديد وهو يقول له «أشكرك لأنك أبلغتنى بهذا».. وينسحب الزوج كاتما غضبه وينطلق إلى بيته.. بينما الشاب يبلغ الزوجة تليفونيا بما حدث ويدعوها للتماسك والهدوء.. وأنه لن يتركها.. وعندما تغلق سماعة التليفون تجد الزوج أمامها فى حالة ثورة عارمة.. تقترب منه تحاول أن تبرر تصرفها وصوتها يخرج مرتعشا حزينا.. «ليس هناك اعتذار عما حدث.. لأنه قد حدث بالفعل كنت وحيدة واحتاج لشخص بجوارى.. ولكنى أحبك..».

يصرخ هو فى عصبية.. ويشتم ويلعن كل شىء.

ويدق الباب، ليدخل الشاب المعوق على كرسيه المتحرك.. إذ هادئ تماما بينما الزوج يندفع ليسحب بندقيته ويصوبها ناحيته.

يقول له الشاب وهو يتقدم بكرسيه ناحيته: «إنها تحبك.. أعطها فرصة أخرى لأن تساعدك.. إنها تحبك.. وأنا لست عدوا».

ويرفع الشاب يديه طالبا السلام..

وينهار الزوج ويرتمى على مقعد.. وتقترب منه زوجته وتمسح رأسه بيديها بينما الشاب يتقدم ليسحب البندقية من يد الزوج.. ويفرغ ما بها من رصاص ثم ينسحب خارجا من البيت.

وينفرد الزوجان معا.. كل منهما ينظر للآخر مهزوما.. جريحا.

ويتلقى الزوج استدعاء من القيادة العسكرية.. فهناك نيشان جديد فى انتظاره تقديرا لأعماله البطولية فى فيتنام!!

وما أسهل صنع النياشين وتوزيعها!!

ويعود الزوج والنياشين ترصع بدلته العسكرية.. ووجهه جامد على تعبيرات المرارة والحزن.

وتستقبله زوجته فى البيت الذى استأجرته على شاطئ البحر.. إنها تقول له بفرح وهى تنظر للنياشين «سأعد لك الطعام الذى

تحبه».. ولا يرد عيلها.. وإنما يخلع ثيابه ببطء شديد.. وتختفى هى داخل البيت.

وفى مشاهدة متبادلة.. نرى الزوج وهو يتخلص من ثيابه.. بينما الشاب المعوق يلقى تحذيراته لمجموعة من الشباب التى اجتمعت به فى أحدى الندوات الجامعية.. ويقول لهم «انها حرب بلا سبب.. لقد ذهبت لا قاتل من أجل لا شيء.. وهذه مسألة مهينة» ويبكى الشاب منفعلا وهو يستطرد قائلا: «أنا آسف على نفسى.. عندما كنت في عمركم لم تتح لى الظروف أن أستمع لنصيحة رجل مجرب.. وها أنا أقول لكم.. أن الاختيار يبدأ من هنا» ويتهدج صوت الشاب وكأنه ينعى ما جرى له.. وما جرى للشباب مثله.. بينما الزوج على شاطئ البحر ينتهى من خلع ثيابه تماما.. ويتحرك ناحية الأمواج.. ليغوص فيها تدريجيا.. ويختفى.

لقد قرر الانتحار..

وينتهى الفيلم.. بمشهد يجمع ما بين الزوجة التى فقدت كل شيء.. وصديقتها التى فقدت أيضا كل شيء.. وهما يسيران بجوار بعضهما ومن خلفهما تظهر على أحد الأبواب كلمة «خروج».

أنه الخروج اليائس من الحرب!

الخروج.. بالجراح والحطام والعجز!!

وهكذا يقرر هذا الفيلم، النتيجة المؤلمة لحرب فيتنام التى فتكت

بالمجتمع الأمريكي.. يضعنا الفيلم أمام مسألة أخلاقية: هل نغفر للزوجة التي خانت زوجها؟!.

ولكن هناك سؤال آخر أساسي:

بأى ميزان نستطيع أن نحاسب على الأخلاق والقيم.. إذا كانت السياسة التى تحكم المجتمع.. غير أخلاقية؟!

وإذا كانت مسألة الزوج والزوجة والعشيق.. هذا الثالوث التقليدى لأفلام الميلودرامية، قد استهلك تماما وأصبح باليا جدا ولا يصلح لأن ينهض بأى فيلم.. إلا أن براعة المخرج «هال آشبى» فى فيلم «العودة إلى الوطن» أنه قدم هذا الثالوث على أرض ملتهبة بالأحداث، وبالتالى تشكلت شخصياتهم فى بناء مختلف.

امرأة ورجلان.. أحدهما عانى الحرب التى تركت بصماتها على جسده فانطلق يحذر منها.. والرجل الآخر، وهو الزوج، لم يفهم شيئا ومضى فى طريقه إلى المصير المؤلم بالانتحار!

أما المرأة.. فهى الشاهد الحساس، الذى يكشف الغطاء عن المأساة، فتحترق بنيرانها تقول «جين فوندا» فى حديث لها عن فيلم «العودة إلى الوطن»:

«إن السؤال الذى يظل بلا إجابة.. لماذا التورط الأمريكى فى فيتنام؟!.. ولكن الإجابة الفعلية للحرب نراها فى هذا التدمير الذى لحق بهذا الجيل من الشباب.. وأخل بالمثل العليا»!



وإذا كانت الممثلة الأمريكية «جين فوندا» بهذا الوعى السياسى الناضج الذى سبب لها المتاعب الكثيرة.. فإنها فى هذا الفيلم ممثلة رائعة.. أصاغت تعبيراتها بإتقان وفهم وصدق.

ونجح الممثل «جون فويت» فى أن ينتقل من حالتين.. الهياج والغضب والتمرد الظاهرى.. إلى النقيض تماما.. الوداعة والحب والحساسية والتمرد الايجابى.. وربما كانت أفضل مشاهده فى هذا الفيلم، هى مشاهد النهاية وهو يتحدث محذرا مجموعة الشباب الجامعى التى استضافته للحديث عن حرب فيتنام.. إنه هنا إنسان يتمزق فعلا.. عانى الأهوال، وفقد ساقيه، وفقد الأمان، وفقد الحب.

وقصة الفيلم كتبتها المؤلفة الأمريكية «نانسى وود» وأعد لها السيناريو «والدوسولت» و «روبرت جونز».. واستغرق المخرج الأمريكى «هال اشبى» أربعة شهور فى تصوير الفيلم. ثم ثمانية شهور فى أعداده للعرض.. واستطاع هذا المخرج أن يصنع من الفيلم نسيجا دراميا فى زمن أواخر الستينيات بأغانيه وموسيقاه الخلفية الكئيبة لحرب فيتنام.. وها هو يقدمه لجيل السبعينيات حتى يذكرهم - كما يقول - بما حدث.

«نحن نتوجه برسالة إلى المجتمع العالمى.. وبالذات هذا الجيل الجديد من الشباب الذى يعرف أن هناك حربا شنتها أمريكا على فيتنام.. وأن هذه الحرب استمرت أربعة سنوات منذ عام ٦٨

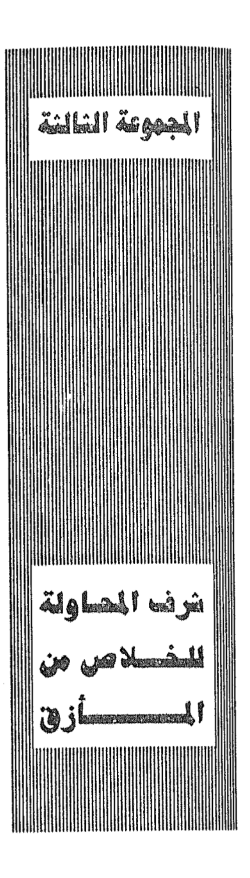
وانتهت بالعار والهزيمة للجيش الأمريكى.. ولكنه لا يعرف كيف أثرت هذه الحرب على العائلة الأمريكية العادية.. والمجتمع الأمريكى ككل».

لقد أصبحت هذه الحرب نقطة تحول خطيرة فى تاريخ أمريكا.

فهل يستطيع أحد أن ينسى هذا؟!

والمخرج هال آشبى بدأ عمله فى السينما من خلال غرفة المونتاج.. مساعدا للمونتاج فى عام ٥٨ .. ثم مسئولا عن المونتاج فى عام ٦٥ .. وكان أول فيلم يقوم بمونتاجه كاملا هو فيلم «المحبوب» للمخرج تونى ريتشاردوسون.. ثم دخل عالم الإخراج عام ١٩٧٠ .. ومن أبرز أفلامه «هارولد ومود» عام ٧١ .. «شامبو» عام ٧٥ .. «فى طريقه إلى المجد» عام ٧٦ .. ثم «العودة إلى الوطن» عام ٧٧ .

وقد اشتركت أمريكا رسميا فى مهرجان كان بفيلميه الأخيرين فى عامين متتاليين.. وفاز فيلم «العودة إلى الوطن» بجائزة أحسن ممثل «جون فويت» فى مهرجان كان ٧٨ .

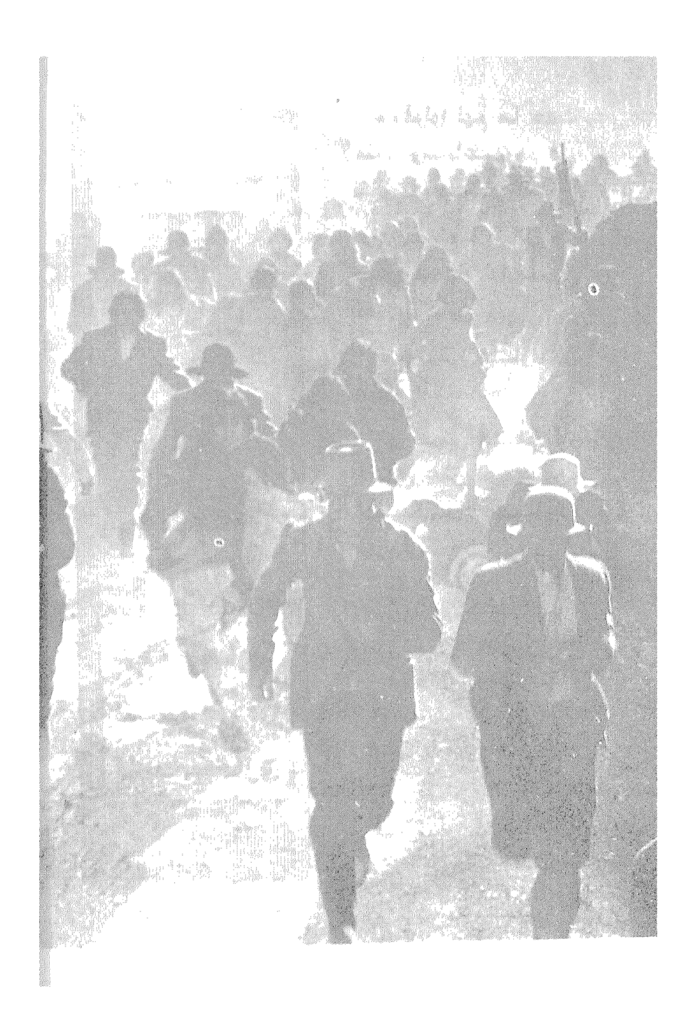


• «قولوا لهم ما حدث هنا.. وساعدوهم فى تنظيم مقاومة حقيقة»

من فيلم «رسائل من ماروسيا» للمخرج «ميجيل ليتين».

• «ولكنى حاولت.. أليس كذلك» ؟!

من فيلم «أحدهم طار فوق عش المجانين» للمخرج «ميلوش فورمان»



رسائل من ماروسيا

ليس هناك أبشع من الأحساس، بأنك غريب فى بلدك وعلى أرضك!

تمضغك الأيام.. تتنفس هواءا مسموما.. وتموت فى كل لحظة بالاختناق والذل والمهانة! إنها الحياة تحت وطأة الاستغلال الكامل لكل طاقتك الجسمانية، ولكل خيرات أرضك! وهذا الفيلم القادم من المكسيك.. يحكى ما حدث لقرية منذ سبعين عاما.. ولكن من يتأمل هذه القرية وما جرى على أرضها.. يكتشف أن فصولا مما جرى، تتكرر كل يوم فى عصرنا هذا!

إنه الصراع الدائم بين محاولات الدول الكبرى لكى تأكل الدول الصغرى.. ومقاومة الدول الصغرى لتحطيم هذه الأنياب المسمومة.

قد تتطور محاولات الأكل.. وقد تتطور محاولات المقاومة.

قد تختلف الأسلحة والوسائل..

ولكن يظل الأساس واحدا فى هذه اللعبة المصيرية.

والفيلم اسمه «رسائل من ماروسيا».

«ماروسيا» اسم قرية فى شيللى.. وهذه القرية مشهورة بمناجمها والأحداث تبدأ فى عام ١٩٠٧ ..

القرية فقيرة.. المساكن متواضعة جدا.. كل الرجال يعملون فى المناجم.. وجو القرية يخيم عليه الغبار الممزوج بالمرارة والألم.. فهم أبناء هذه الأرض ولكنهم لايملكون منها شيئا.. فكل كنوز الأرض وخيراتها يذهب للشركة الإنجليزية المسيطرة على المناجم.. وهذه الشركة تعامل أهالى القرية وعمال المناجم معاملة سيئة جدا. فلا خدمات.. ولا رعاية.. ولا أجور معقولة..

ولا ضمانات.. ثم بالإضافة إلى كل هذا.. فهناك العنف والقمع، معتمدين فى ذلك على عناصر من الجيش الوطنى الذين أسلموا قيادتهم وقوتهم إلى الشركة الإنجليزية.

وذات يوم.. تكتشف جثة أحد الانجليز المديرين بشركة المناجم.. الجثة ملقاة فى ساحة القرية.. ويثور المسئولون فى شركة المناجم، ويقررون العقاب الفورى.. وتعتقل الشرطة واحدا من عمال المناجم وتوجه إليه تهمة القتل. ويعدم فورا رميا بالرصاص فى ساحة القرية!!

ولم يكن هدف المسئولين عن شركة لمناجم البحث عن القاتل الحقيقى.. أو سر الجريمة.. ولكن كان الهدف هو اصطياد أية ضحية لتخويف أهالى القرية!!

ولكن الخوف لا يحدث!

فهناك هذا الرجل من أهالى القرية الذى أعدموا صديقه بلاذنب.. فيقرر أن يذبح أحد الضباط انتقاما لما حدث.. وبالفعل يذبح الضباط.. ولكنهم يقبضون عليه ويعدمونه فورا رميا بالرصاص أمام أهالى القرية!!

ويقرر عمال المناجم الأضراب العام..

لابد أن تتوقف الحياة فى «ماروسيا»..

وينجح الأضراب العام.. وتفقد شركة المناجم أعصابها.. ويقوم رئيسها بطلب امدادات من الجيش لمقاومة الأضراب: (الإضراب لابد أن يتوقف.. حتى لا ينتشر السخط.. وتنتقل عدوى الإضراب إلى جميع القرى والمناجم الأخرى فى شيلى.. لابد من مقاومة هؤلاء الأعداء).

هكذا يصرخ رئيس شركة المناجم.. ويبرر طلبه بالنجدة العاجلة: (بأن هؤلاء الاعداء لابد من ضربهم.. فهذا هو العمل الوطنى الحقيقى).

وهكذا أصبح أبناء القرية هم «الأعداء»!!

وهكذا صدرت الأوامر إلى قوات من الجيش «كعمل وطنى» لضرب «الأعداء»!!

ووسط هذا التوتر والارتباك الذى ساد قوات الشرطة والجيش، لمقاومة «الأعداء».. تشهد أحدى ليالى القرية، حادثا مثيرا للغاية.

أحد ضباط الجيش.. يتوهم في ظلام الليل.. أن بعض أهالي القرية «الأعداء».. يتحركون مستترين بالظلام وبجو الغبار العام الذي يسود القرية.. فيصدر أوامره بإطلاق النار.. ولكن المفاجأة المذهلة.. أن هؤلاء المتحركين في الظلام ما هم إلا بعض جنود من الجيش، فرقة أخرى من الجنود المذعورين.. المرتبكين.

ويسقط القتلى. وتتضح الحقيقة، الجنود يطلقون الرصاص على زملائهم!!

فضيحة!! ولكن لابد من التغطية السريعة لهذه الكارثة.. والبحث عن ضحايا من أهالي القرية لاتهامهم بهذه الجريمة.

وتبدأ سلسلة من العنف والتعذيب.. وتفتيش مساكن العمال.. وضربهم.. والقاء زعماء العمال في المعتقلات

وتخرج نساء القرية ليقفن على المداخل ووسط ساحة القرية.. يزغردن ويغنين ويصفقن في إيقاع يتصاعد تدريجيا.. كأنه طبول الحرب لتخويف الجنود وأعلان أصرار القرية على المقاومة.

ويجن الجنود.. ويصدر قائدهم أوامره بتشديد العنف.. وإجراء المذابح الجماعية للنساء والرجال..

وتتناثر بقع الدم.. وتسقط الجثث تملأ طرقات القرية.. مع موسيقى «تيودراكيس» الرائعة.. وكأنها تعلن سيمفونية المقاومة التي تنساب من كل بيت.. ثم تتجمع لتصنع هذا الهدير الهائل.

ويقرر أحد زعماء العمال أن يقدم نموذجا فريدا في المقاومة.. إنه يحشو صدره ووسطه بأصابع الديناميت.. ويجلس في مدخل بيته.. حتى يصبح من السهل على الجنود أن يصطادوه!! ولكن.. كلما اقتربوا منه يملؤهم أكثر الخوف والفزع فهو جالس في هدوء، يبتسم، ويملأ كوبه بالنبيذ ويشرب في لا مبالاة.. أن ابتسامته تجعلهم يفقدون أعصابهم!!..

ويقرر قائدهم أطلاق الرصاص عليه.. ويبتسم هو أكثر وتنطلق رصاصتهم الكثيرة على جسده.. فينفجر الجسد بشحنات الديناميت.. ويتطاير الجنود اشلاء.. ويحترق المكان كله!!

لقد تحول الإنسان إلى شحنة ناسفة.. وانتشرت هذه الفكرة.

أحزمة الديناميت تلف الصدور والبطون والرجال يسيرون بها في ساحات القرية يتحدون الجنود.. والجنود خائفون من الاقتراب منهم أن كل رجل من أهالي القرية أصبح قنبلة متحركة

إنهم يتحركون في ثقة وهدوء وتحد غريب الابتسامات على وجوههم والاغاني في أفواههم وأيديهم تشير إلى الجنود أن يقتربوا منهم..

والجنود خائفون..

ويثور قوداهم.. يأمرون الجنود بإطلاق النار.. ثم يجرون هم بعيدا.

والجنود لا ينفذون الأوامر بإطلاق النار..

فيأمر قوادهم بأن تتولى الصفوف الخلفية من الجنود أطلاق النار على كل جندى لا ينفذ الأوامر.

مرة أخرى الجنود يطلقون النار على زملائهم.

وتنطلق شحنات الديناميت.. لتطيح بالجميع..

العمال يقدمون أجسادهم.. لنسف كل شيء..

وتتردد أغانى نساء القرية وأطفالها.. ويغنى أيضا الرجال..

كثير من الدماء والجثث.. مع موسيقى «تيودراكيس».

لا خوف من الموت.. لقد أصبحت القضية واضحة تماما ولامجال للاختيار.. أما الحياة الذليلة.. أو الموت الشريف.

والموت هنا.. له فرحة وزهو..

الموت له صوت.. وصدى..

ويعجز الجنود عن فض الاضراب العام أو حتى تخويف أهالى القرية.

لقد تحول كل أهالى القرية.. إلى كتلة متماسكة تقاوم.

وتصدر أوامر من قيادة الجيش بترحيل الرعايا الأنجليز من العاملين فى شركة المناجم بعيدا عن القرية الملتهبة.

وفى نفس الوقت هناك نداءات مستمرة من الجيش بطلب امدادات أضافية وتعزيزات.



ويأتى قطار محمل بالذخيرة والمدافع والجنود.

أنه قطار يحمل مزيدا من الدمار للقرية.

وتقرر نساء القرية بقيادة فتاة شابة أن يخرجن لاستقبال القطار.

● ●

أنه استقبال من نوع فريد..

تصدر الفتاة تعليماتها أن تنام كل النساء على قضبان القطار.. يتجاورن ويمسكن بأيدى بعضهن ويرفعن رؤوسهن فى جلال وصلابة وتحد.

ويقترب القطار أكثر.. والنساء صنعن من أجسادهن عائقا



بشريا!! ويرتبك سائق القطار لهذا المشهد المروع.. ويقف بالقطار على بعد سنتيمترات قليلة من أجساد النساء المتلاصقة.

ويشعر قائد الجنود المسئول عن قافلة القطار العسكرى.. بذهول سائق القطار أمام مشهد النساء على القضبان.. فيصدر إليه أوامره بغلظة شديدة أن يمر بالقطار على أجسادهن!!

ينظر إليه السائق فى ذهول.. ويرفض تنفيذ الأوامر.. فيسرع القائد بإطلاق الرصاص عليه وتسقط جثة السائق على القضبان.. ويتقدم أحد الضباط من القائد ليخبره بأن السائق كان هو الإنسان الوحيد فى القطار الذى يستطيع قيادة القطار.. وإنه لا أحد يستطيع القيام بهذه المهمة الآن!!

ويجن القائد لهذه المفاجأة.. ويفقد أعصابه تماما.. فيأمر بانزال الجنود من القطار وقصف كل النساء النائمات على القضبان.

ويمتثل الجنود للأوامر.

وتنطلق المدافع والبنادق.. تمزق أجساد النساء بالرصاص.. بينما هن يمسكن بأيدى بعضهن.. ولا يبدو على وجوههن أى خوف.

إنه هذا الفرح الغريب للاستشهاد..

وهذه القدرة العجيبة على التماسك ومواجهة الموت بشجاعة نادرة..

وتتناثر بقع الدم تملأ الوجوه وتسيل على الأرض.

وتنطلق موسيقى «تيودراكيس» فى مزيج رائع من الحزن والتفاؤل.. كأنها تشيع هذا الاستشهاد الجماعى.. وتعلن فى نفس الوقت عن استمرار المقاومة.

ويحمل الجنود أسلحتهم الثقيلة.. ويعبرون بها التلال والمسافات الطويلة.. فالقطار أصبح جثة هامدة.. والقائد المجنون يصدر أوامره بالتحرك السريع..

● ●

وتستقر المدافع على مشارف القرية.. وعلى قمم التلال المحيطة بالقرية.

ويحيط الجنود ببنادقهم كل مداخل القرية.

الهدف الآن.. هو تدمير القرية على كل من فيها!!

ويبدأ القصف المجنون..

أنهم يجيدون التصويب.. ومن ورائهم قوادهم لا يمهلونهم أية فرصة لالتقاط الأنفاس.

لقد مات الكثير من أهالى القرية..

مات كثير من الرجال.. وكثير من النساء.

وبقى الأطفال يمضغون الحزن.. ويتعلمون فى مدرسة القرية بقيادة المعلمة الشابة الحازمة الممتلئة بالحماس والوطنية.

وقنابل المدافع تنهمر فى كل جانب.. تهدم البيوت.. وتشعل الحرائق. وتنفذ من جدران المدرسة.. فيرمى الأطفال أنفسهم على الأرض يخبئون رؤوسهم ويمسكون بأيدى بعضهم.. يكتمون الفزع والدموع.. والرصاص يمر من فوق أجسادهم.

كل شئ من حولهم مجنون.. ودموى.. الجنود يتسللون إلى القرية تحت ستار قصف المدافع.. لاصطياد من بقى على قيد الحياة.. إنهم لايتورعون عن القتل بكل الأساليب.. ربما كان أبشع مشهد هو ما قام به أحد الجنود بضرب سيدة عجوز فى فكها بكعب البندقية.. فيتحطم الفك تماما أمامك وتتساقط الاسنان فى بحر من الدماء.

ولكن من تبقى من أهالى القرية لا يستسلم أنهم يخترعون ما يشبه القنابل اليدوية. مستخدمين كل وسائلهم البدائية فى تجهيز خاماتها.. فالاصرار الشديد يصنع المستحيل.

لقد صنعوا من أجسادهم قنابل متحركة!

فهل يفشلون فى صنع قنابل بأيديهم!! وتستمر المقاومة بين طرقات القرية.. ويتقدم قائد الجنود إلى مدرسة القرية، ويهددها.. أما أن يستسلم زعيم العمال أو أعدام كافة أطفال المدرسة فورا!!

الطلب مروع.. تقول المدرسة بألم وسخرية قائلة: «هل هذه حربك أيها القائد»؟!؟ فيرد عليها بعجرفة شديدة: «نعم.. أنها حربى».

وتدرك تماما هذا السعار المجنون للقبض على زعيم العمال!!

أنه جورجيو - يلعب الدور الممثل الايطالى العظيم (جيان ماريا فولنتى) - الذى يضع خطط المقاومة.. ويكتب رسائل يضمنها وقائع المذبحة الرهيبة التى حدثت فى القرية وأسلوب الجنود فى القمع.. وبعض الأساليب المقابلة للمقاومة.. أنه حريص تماما على أن يكتب هذه الرسائل ليهربها عن طريق ثلاثة من زملائه إلى خارج القرية: «خذوا هذه الرسائل.. واذهبوا إلى عمال المناجم فى الجنوب وفى كل انحاء شيلى.. وقولوا لهم ماحدث هنا.. وساعدوهم فى تنظيم أنفسهم لمقاومة حقيقية».

ان الدرس والتجربة يجب ألا تدفن مع بيوت القرية.

فالمهمة الآن.. ليست انقاذ قرية «ماروسيا».. ولكن تنبيه وانقاذ «شيلى» كلها

●●

تتقدم مدرسة القرية الشابة.. ومن خلفها بعض الجنود إلى مخبأ زعيم العمال «جورجيو».. وتبلغه بتهديد القائد.. أما استسلامه أو قتل جميع أطفال المدرسة

يتحامل (جورجيو) على قدميه.. ويخرج ليواجه الموت.

فليحدث له مايحدث.. ولكن ليبقى جيل المستقبل شاهدا على ضراوة المعركة. وليتعلم الدرس.

يخرج (جورجيو) إلى ساحة القرية التى امتلأت بالجنود المدججين بالأسلحة ينتظرونه.

أنه لم يأكل ولم يشرب منذ زمن.. قواه تخونه.. ولكنه يتحامل.. ويرفع رأسه ويتقدم.

أنه يرى الحرائق تملأ كل مكان.. الخراب عام. الجثث منتشرة. أشلاء ودم.. والمشهد فظيع وكأنه نهاية العالم.

ينقض الجنود عليه ويسحبونه.. ويطرحونه أرضا.. ويضربونه بكعوب البنادق.

بعض الجنود مازالوايطلقون النار على من تبقى من الأهالى..

أنهم يضعونهم فى صفوف ويضربونهم من الخلف.

وأطفال المدرسة يتجمعون فى فزع وألم يشاهدون المذبحة.. أنهم يشاهدون مقتل أبائهم وأخواتهم أمام عيونهم.. وهاهو زعيم العمال (جورجيو) يتوسط الميدان ليحيط به عدد ضخم من الجنود والكل يصوب بندقيته إليه.. وتنطلق مئات الرصاصات عليه.. وكأنه أكبر هدف لديهم!!

وتسقط جثة (جورجيو) مثقوبة من كل جانب!

وتتعالى صيحات بعض الأمهات وتصفيقهن.. وتتردد الأغنية.. ونشاهد الرجال الثلاثة الذين يحملون الرسائل من «ماروسيا» ينجحون فى الهرب من القرية.. وتظهر على الشاشة.. عبارة «يونيو ١٩٠٧».

••

سبعون عاما مضت على هذه الحادثة الحقيقية.. ولكن مازالت بعض فصولها تتكرر بشكل أو بآخر فى أمريكا اللاتينية.. هكذا يقول المخرج «ميجيل ليتين».. والمخرج نفسه له قصة..

فقد هرب من شيلى.. ولجأ إلى المكسيك.. بعد سقوط حكم «الليندى» فى شيلى.. يقول المخرج «أن الموضوع عصرى جدا.. يعرض لكيفية تدخل هذه القوى الأجنبية بمساعدة بعض العناصر الوطنية. لفرض سيطرة نظام معين»..

والمخرج «ميجيل ليتين» لم يحدد من الملابس أو الشارات

العسكرية للجنود الذين ضربوا قرية ماروسيا، إلى أية جهة ينتمون.. وقد كان هذا مضمون سؤال وجه له فى المؤتمر الصحفى بعد عرض الفيلم فى مهرجان كان السينمائى عام ٧٦ فرد قائلا، «أنهم معروفون.. فهم القوى المعادية لأى حركة تحرير»!

والمخرج يؤكد أن المخرجين السينمائيين يجب أن تكون لهم وجهة النظر السياسية المحددة فهم مضطرون لأن يرسموا لوحة الحياة الاجتماعية فى بلادهم... وفى أمريكا اللاتينية وفى دول العالم الثالث عموما.. تصبح المهمة ضرورية جدا بالنسبة لصانعى الأفلام، أن يقولوا وجهة نظرهم وأن يهتموا بمشاكل المصير المتعلقة ببلادهم. «فنحن نحارب من أجل الحرية والديموقراطية»..

والمثير أن هذا المخرج الذى أبدع هذا الفيلم لم يتجاوز عمره عند اخراجه لهذا الفيلم ثلاثة وثلاثين عاما! وهذا هو فيلمه الرابع.. فقد بدأ الاخراج عام ٦٨ .

والمتأمل لفيلم «رسائل من ماروسيا» لا يستطيع أن يحدد قصة للفيلم لها بداية ووسط ونهاية.. فليس هناك بطل تدور حوله أو معه الأحداث.. إنما البطل هنا هو أهالى القرية جميعا، فى بانوراما استعراضية لملامح العنف والقمع فى مواجهة أية حركة للمطالبة بالحرية والحقوق العادلة.

ولقد برع المخرج «ميجيل ليتين» فى أن يجعل من هذه القرية.. مسرحا هائلا لحركة الكاميرا.. لقد سيطر على كل حركة



من مجاميع الأهالى فى ايقاع متصاعد.. وكأن بركانا يثور ليغمر كل شئ.. ولقد استعان المخرج بأبناء القرية أنفسهم لتصوير مشاهد الفيلم.. لم يلجأ للممثلين المحترفين واعداد الكومبارس، بل جعل الأهالى أنفسهم هم الذين يحكون لنا ما حدث فالبلد بلدهم.. والقضية قضيتهم.. وأحداثها محفورة فى أعماقهم جيلا بعد جيل!

●●

ورغم أن الممثل الايطالى العظيم (جيان ماريا فولنتى) الذى تخصص فى تمثيل الأفلام السياسية.. لم يظهر فى فيلم «رسائل

من «ماروسيا» الا فى مشاهد قليلة.. إلا أنه كان «الروح» التى تسيطر على خطط المقاومة.. وقد كان بارعا فى مشاهد نهاية الفيلم.. وهو يوزع أسرار وتعاليم المقاومة إلى ثلاثة من زملائه لينشروها خارج حدود القرية التى دكت تماما.

وعشاق السينما يذكرون الممثل (جيان ماريا فولنتى) فى أشهر أدواره الأخيرة التى شاركت فى صعود السينما الايطالية. وبالذات السينما السياسية.. ومنها فيلم «الطبقة العاملة تذهب إلى الجنة» للمخرج اليو بترى.. وفيلم «قضية ماتيه» للمخرج فرانشيسكو روزى.. وفيلم «الاغتيال» عن قضية المهدى ابن بركة للمخرج «ايف بواسييه».

●●

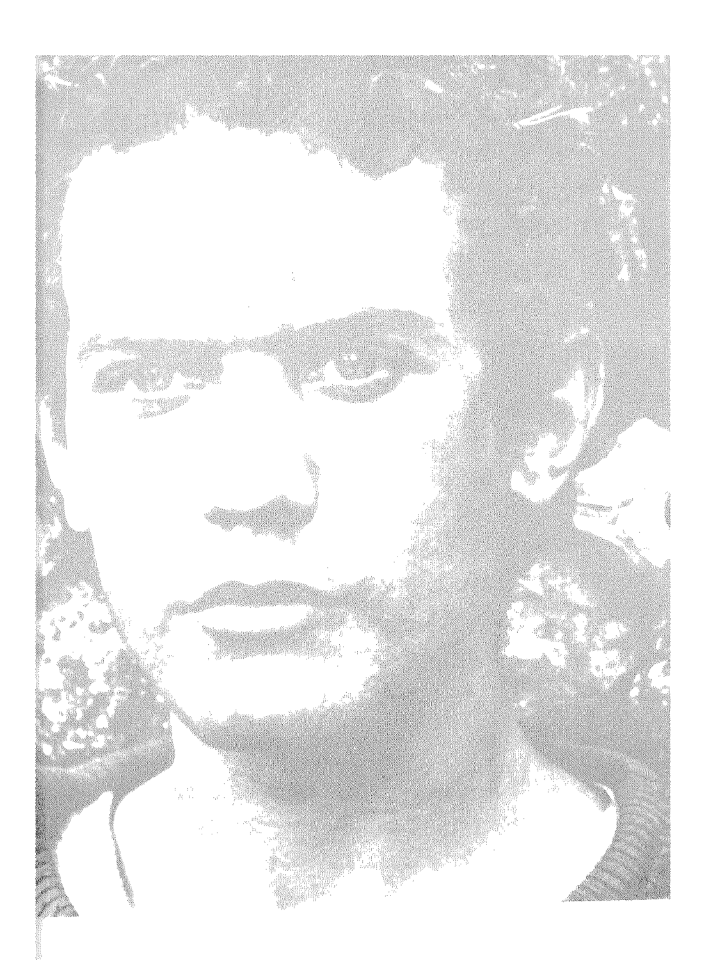
أما الموسيقار اليونانى «تيودراكيس» الذى وهب فنه للأفلام السياسية. والأغانى الوطنية.. فها هو فى فيلم «رسائل من ماروسيا» يتألق وكأنه يخاطب أهالى وطنه فى اليونان الذين أسقطوا الحكم العسكرى الديكتاتورى.. أنه يحتفل بجميع المناضلين من أجل الحرية والديموقراطية.

●●

ان هذا الفيلم «رسائل من ماروسيا» بالرغم من الدم الكثير المراق على أرض القرية وجدرانها وصخور تلالها.. وبالرغم من العنف الشديد فى كثير من مشاهده.. الا أنه ملحمة رائعة فنية

وسياسية تشهد لقوة الإنسان واصراره فى مواجهة أى تدخل يمس حريته وكرامته.

وقد رشح الفيلم لأوسكار أحسن فيلم أجنبى.. وتقدمت به المكسيك رسميا لمسابقة مهرجان كان ١٩٧٦.



أحدهم طار فوق عش المجانين

ربما لا يدرك البعض كيف يعيشون.

الأيام تمر بهم يأكلون، وينامون، ويتكلمون، ويمرحون، لكن فى حدود ما تسمح به السلطة. وماتضعه من ضوابط.!!

ومن شدة الحصار المفروض عليهم، وأسلوب القهر والتسلط فى تنفيذ النظام الموضوع يتشكل تفكير وتصرفات هؤلاء البشر، لتمضى حياتهم كما تريد السلطة، حتى تصبح هذه الحياة لا بديل لها. !!

ولكن عندما يأتى أحدهم ليناقش هذا النظام.. ويحاول أن يجعل الآخرين يتأملون ويفكرون فيما حولهم.. ويزرع بداخلهم هذا الاحساس بالاختيار والاحتجاج والرفض ليغير من هذه الحياة المفروضة على الجميع.. فى هذه الحالة يصبح هذا الإنسان مكمن الخطر بالنسبة للسلطة.. فهو فى نظرهم يهدد النظام!!

وعلى هذا الأساس تتعامل معه السلطة حتى تقضى عليه تماما.

ولكن.. تصبح شجاعة هذا الإنسان.. إنه «حاول».

حتى ولو كانت «محاولته» لايستفيد بها شخصيا، بالعكس ذهب ضحيتها.. وإنما شرف «محاولته» فتحت الأبواب للآخرين لكى يستيقظوا على حقيقة الوضع الذى يعيشونه ومن هنا تأتى أهمية هذا الفيلم «أحدهم طار فوق عش المجانين»

وهذا الفيلم من الممكن أن تشاهده على مستويين:

مستوى ماهو معروض على الشاشة.. حيث نجد مستشفى للأمراض النفسية والعقلية يتبع نظاما قاسيا بحجة علاج المرضى... ثم ما أحدثه هذا الوافد الجديد على المستشفى، من محاولة الخروج من حصار هذا النظام.

المستوى الثانى الذى يمكن أن نشاهد به هذا الفيلم، هو المستوى الأبعد والأهم.. عندما نعتبر هذه المستشفى نموذجا لمجتمع مغلق، حيث نجد الرعايا والحكام.. والامتثال والخضوع للنظام.. وتهديد القيادة الحاكمة والتلويح الدائم بالعقاب لدرجة تحطيم كل من يحاول الاعتراض، سواء أكان هذا التحطيم معنويا أو جسديا.!!

ومن هنا يصبح الموضوع عن سلطة القمع وماتفعله بالإنسان.

وقد استحق هذا الفيلم «احدهم طار فوق عش المجانين» أن ينال خمس جوائز أوسكار عام ٧٦ ـ كأحسن فيلم ـ وأحسن مخرج (ميلوش فورمان) ـ وأحسن ممثل (جاك نيكولسون) ـ وأحسن

ممثلة (لويز فيلتشر) - وأحسن سيناريو معد عن نص أدبى (لورنس هوبن وبو جولدمان).

يبدأ الفيلم داخل مستشفى للأمراض النفسية والعقلية.. فى بداية يوم جديد المكان غير محدد.. وإن كان يبدو فى احدى الولايات الأمريكية.

الزمان غير محدد.. وان كان يبدو إنه فى زماننا الحالى.. أوائل السبعينيات من هذا القرن.

تظهر الممرضة «راتشد» التى يبدو على ملامحها الصرامة والحزم وان كانت تحاول أن تغلف وجهها بابتسامة هادئة (تلعب الدور الممثلة لويز فيلتشر) تمسك بميكرفون من داخل غرفة زجاجية تطل على عنبر المرضى.. تنادى: «هذا وقت تناول الدواء».

يتقدم المرضى فى هدوء وتعود.. ليبتلعوا أقراص الدواء التى تقدمها احدى الممرضات وتحت مراقبة ممرض آخر يبدو أنه له وظيفة أخرى كحارس.

نتعرف على بعض المرضى.. وهم جميعا نماذج مستسلمة تماما.. تتراوح أعمارهم من ٢٥ عاما، إلى هذا العجوز الذى يجلس على مقعد متحرك.

على باب المستشفى يظهر الوافد الجديد على المكان.. مريض مكبل اليدين فى حراسة أحد رجال الشرطة.

يدخل المريض الجديد «ماكمورفى» وهو يتظاهر بالجنون من خلال تعبيرات وجهه وضحكاته الهيستيرية (يلعب الدور جاك نيكولسون) .. وفى حجرة مدير المستشفى نتعرف عليه أكثر من خلال أوراقه، ومن خلال حديث مدير المستشفى معه.

أنه فى الثامنة والثلاثين من عمره.. تقول الأوراق المرسلة معه إلى المستشفى أنه قبض عليه خمس مرات من قبل بتهمة الاعتداء على الآخرين وسجن بتهمة اغتصاب قاصر. وأودع فى معسكر للعمل، ولكنه يتشاجر كثيرا ويتكلم دون أن يصرح له بالكلام، ثم أنه كسول ويكره العمل ويمضغ اللبان أثناء الدرس.. ولهذا أرسلته مزرعة العمل إلى المستشفى للتحقق من حالته العقلية.. هل هو مريض بمرض عقلى أم لا.؟.

ومدير المستشفى يقرأ فى الأوراق والملف الخاص بالمريض «ماكمورفى».. بينما «ماكمورفى» يعلق ويجيب بذكاء وسخرية.. إنه يرد على التقرير الذى يذكر اتهامه باغتصاب قاصر.. بقوله.. «هذا صحيح.. لقد كانت فى الخامسة عشرة، ولكنها قالت لى أنها فى الثامنة عشرة.. ولم أقاوم اغراءها.. فقد كان إغراؤها أقوى من ارادتى.. ولهذا دخلت السجن لأول مرة.. وكانت البداية..»!

يواجهه مدير المستشفى بسؤال صريح: «هل تشعر حقا أنك مريض عقليا»؟

ويجيبه «ماكمورفي» بابتسامة واثقة جدا.. «كلا.. فأنا اعجوبة العلم الحديث» !!

ويندهش مدير المستشفى لهذه الاجابة.. ويبلغه أنه سيبقى فى المستشفى للتأكد من حالته.. ويتعهد «ماكمورفى» أنه سيتعاون معهم إلى أبعد حد.

وينضم «ماكمورفى» إلى مرضى المستشفى.. ومن هذه اللحظة يبدأ اكتشافه لهذا العالم المغلق.

من ضمن نظام العلاج فى المستشفى.. هذه الاجتماعات التى تعقدها الممرضة «راتشد» مع مجموعة المرضى، لتدعهم يتكلمون عن حياتهم.. وتشرك بقية المجموعة فى التعليق.. وغالبا ماتحاول الممرضة استثارة المرضى واستفزازهم للمناقشة بأسلوبها الصارم، والجارح، والمغلف بهذه الطبقة من الهدوء البارد المثير. وابتسامتها الصفراء.

فى أول جلسة يحضرها المريض «ماكمورفى» تفتح الممرضة «راتشد» باب المناقشة حول حالة زميلهم المريض الذى يشك فى أخلاق زوجته ويعتقد أنها تخونه.. فهى - كما يقول - تحاول اجتذاب المارة فى الشارع! وتسأله الممرضة بجفاف شديد أن يفسر الأسباب التى تدعوه لهذا الشك.. ثم تستطرد قائلة وكأنها تتعمد أن تجرح مشاعره: «ألم تفكر أنك ربما كنت تضيق بزوجتك لأنها لا ترقى إلى مستواك العقلى» ؟

ويرد المريض وهو يتعذب بالسؤال ويتعذب أكثر لحالته: «ربما.. ربما يكون هذا هو السبب.. ولكن الأمر الذى أفكر فيه هو العلاقات الإنسانيةالتى تقوم بين أفراد المجتمع شكلا ومضمونا..» ويقاطعه مريض آخر باستخفاف.. فيرد عليه بحدة: «أنت لاتفهم ما أعنيه .. أنا لا أتحدث عن شخص معين ولكنى أتحدث عن كل انسان .. أتحدث عن شكل العلاقات التى تقوم بين الأفراد داخل المجتمع الإنسانى.. هل تفهمنى الآن»؟ فيقاطعه المريض الآخر بسخرية أكبر «لم أكن أظن أنك على هذا القدر من البلاهة».. ويحتد المرضى ويتصايحون.. والمريض الجديد «ماكمورفى» يراقب كل هذا بدهشة.. بينما الممرضة تجلس جامدة.. وكأن مايحدث أمامها لا يحرك فى داخلها أى شئ.

ويصبح هذا الاجتماع.. أول اكتشاف مؤلم للنظام.. والعلاج.. داخل هذا المستشفى.

المريض «ماكمورفى» يتأمل زملاءه المرضى ويحاول أن يقترب منهم أكثر.. ففى ملعب كرة السلة الملحق بالمستشفى يحاول أن يدرب هذا المريض الهندى العملاق، والمعروف بلقب «الرئيس» وأنه لا يسمع ولا يتكلم.

«ماكمورفى» يبذل مجهودا خرافيا لتدريب هذا العملاق الهندى الصامت، بين نظرات الممرضين ودهشتهم.

وهو أيضا يثير الحيوية فى عنبر المرضى بمحاولاته لتسخين مباريات لعب ورق الكوتشينة نظير رهان بسيط.. وهو أيضا الذى



يتصدى فى أول مواجهة بينه وبين الممرضة «راتشد» التى يطلب منها أن تخفض صوت الموسيقى المذاعة فى العنابر، حتى تدع فرصة لهم أن يتكلموا دون أن يصرخوا.. فتواجهه الممرضة بوجهها الصارم وابتسامتها الباردة لتخبره أن هذا هو النظام.. وهذا هو العلاج.. ثم تطلب منه بغلظه شديدة أن يرفع يده من على زجاج نافذتها حتى لا يلوثه!.

ويشتاط «ماكمورفى» غضبا ويراهن زملاءه المرضى «أراهن أننى فى أسبوع واحد سأضع أنفها فى الأرض.. وسأذلها..!!»

وفى الاجتماع مع المرضى الذى تنظمه الممرضة «راتشد».. يطلب هو تغيير البرنامج اليومى حتى يتمكنوا من مشاهدة مباريات الدورة الأولمبية فى التليفزيون.. تعترض هى بحجة النظام.. فيقول مبررا طلبه: «إنه تعديل بسيط ولن يضر أحدا.. وهو لون من التنويع على أى حال».. ولكن الممرضة تناقشه بحدة وعندها مبررات كثيرة تدخل تحت بند «إن هذا التغيير.. سيربك المرضى ويسبب لهم الحيرة والاضطراب».. ولكنه يصمم على طلبه.. فتقترح هى أخذ الأصوات بين المرضى الحاضرين.. ويتحمس «ماكمورفى» لاثارة حماس زملائه حول اقتراحه: «هيا يارجال ارفعوا أيديكم.. ماذا جرى لكم.. ألا تحبون مشاهدة المباريات.. ارفعوا أيديكم.. فهذا تمرين رياضى مفيد».. ولكن رغم الجهد الذى بذله لتشجيع زملائه للتصويت على اقتراحه.. فلم يرفع يده بالموافقة غير ثلاث فقط، هو واحد منهم.. وتفرح الممرضة «راتشد» بهذه النتيجة، فقد انتصرت.. وأسرعت بانهاء الاجتماع.

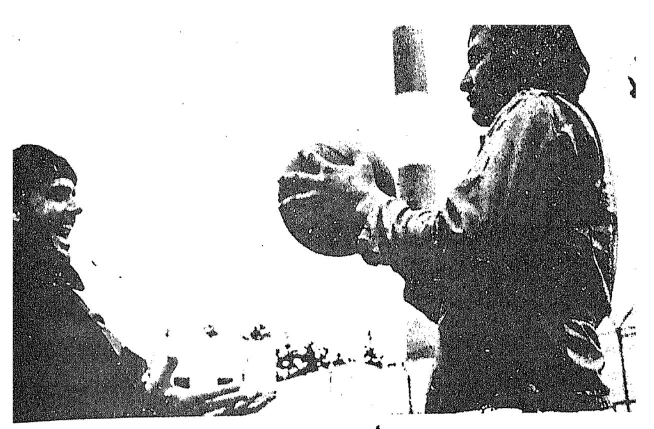
ويكتشف «ماكمورفى» ان سقوط اقتراحه اثناء التصويت لايعنى غير خوف المرضى أو لا مبالاتهم.. أو عدم تعودهم الخروج عن النظام الموضوع.. ويحاول من جديد ان يدفعهم للتغيير.. إنه يعلن فى عنبر المرضى أنه قرر أن يخرج من المستشفى ويذهب إلى أحدى الحانات فى المدينة ليشاهد المباريات فى التليفزيون.. ويسأله احدهم.. كيف يمكن أن تخرج من هنا.. ويقترب «ماكمورفى» من القاعدة الرخامية المثبته فى ارض حمام العنبر

والتى يخرج منها صنبور المياه.. ويحاول اقتلاع القاعدة الرخامية ليحطم بها زجاج نوافذ العنبر لينطلق إلى الخارج.. ويقف الجميع حوله مندهشين لفكرته وجرأته ومحاولاته المستميتة لأقتلاع القاعدة الرخامية.. إنه يبذل جهدا خارقا.. ولكنه يفشل فى اقتلاعها.. يسخر منه أحد المرضى... فينظر له بجدية شديدة والعرق يتصبب على وجهه ويقول: «ولكنى حاولت.. أليس كذلك»؟

وتصبح هذه الجملة هى الشرارة الأولى للاحتجاج.

إنه يحاول أن يلقنهم درسا.

وفى الاجتماع التالى مع الممرضة «راتشد» يكرر طرح اقتراحه بتغيير المواعيد لمشاهدة المباريات فى التليفزيون.. وتعود الممرضة إلى طريقتها فى ممارسة الديموقراطية (!!).. وتقول ان الاصوات خذلته فى المرة السابقة.. وأن عدد المرضى فى العنبر ١٨ مريضا.. واذا اراد الفوز باقتراحه عليه ان يحصل على أغلبية الاصوات.. ويتحمس «ماكمورفى» لدفع زملائه إلى رفع ايديهم: «من منكم يملك الشجاعة.. ويرفع يده».. ويتحرك بين المرضى مشجعا لهم أن يرفعوا ايديهم.. وبالفعل ترتفع تسعة أيد.. أى تسعة أصوات.. ولكن الممرضة «راتشد» تقابل هذا الأسلوب ببرود أكثر.. فالاقتراح لم يحصل على الأغلبية فى التصويت.. ويثور «ماكمورفى».. ولكن الممرضة مصممة على موقفها الجامد..



ويحاول «ماكمورفى» أن يحصل على صوت جديد يضمن له الأغلبية.. يدور بين زملائه المرضى يحاول اقناعهم برفع ايديهم.. يرقص ويغنى لهم.. ويكاد يتوسل.. إنه يقول لهذا المريض الهندى العملاق «أرفع يدك يارئيس.. هل تفهمنى.. أرفع يدك.. كل مانحتاجه منك أن ترفع يدك.. حاول أن تثبت لها أنك تستطيع ذلك».

ووسط دهشه الجميع.. يرفع المريض الهندى يده.

ويصيح «ماكمورفى» بفرح.. لقد حصل على الصوت الذى يضمن له الأغلبية.. ولكن الممرضة تسارع بأنهاء الاجتماع.. واعتبار هذا التصويت غير سليم!

ويكتشف «ماكمورفى» عملية الخداع والتى تجرى حوله بحجةالنظام والعلاج.. ويقرر ان يستجمع كل زملائه من أجل

الخروج من هذا الاستسلام القاتل.. ويستعين بزميله العملاق الهندى فى الصعود على كتفيه ليتسلق سور المستشفى ليفتحه من الخارج.. ويدعو زملاءه للخروج وركوب الأتوبيس الواقف على الباب، ويقوم بقيادة الأتوبيس فى شوارع المدينة ويمر فى الطريق على فتاته ليصطحبها معهم فى نزهة بحرية.. ويستقلون مركبا بخاريا بخدعة لطيفة، فهو يقدم زملاءه إلى حارس المركب بأنهم مجموعة من الأطباء من معهد الأمراض العقلية.. ويقدم أسماءهم مسبوقه بلقب دكتور.. وتفوت الخدعة على الحارس.. وينطلقون إلى داخل المركب.. وهو يقودهم إلى مواقعهم محددا لهم كيفية الامساك بالدفة.. وكيفية الامساك بسنانير صيد السمك.. ثم يختفى هو معه فتاته فى حجرة داخلية بالمركب.. ولا يخرج الا على صياح زملائه الذين أذهلتهم مفاجأة اصطياد سمكة ضخمة.. ويعودون من رحلتهم البحرية وهم فى غايه السعادة والمرح ويعلق «ماكمورفى» قائلا بفرح: «هانحن قد عدنا بسلام من رحلتنا الأولى.. ولم نفقد فى هذه الرحلة مجنونا واحدا.. أليس هذا اسهل من اللعب بالكرة»؟

ولكن هذه الرحلة اعتبرتها ادارة المستشفى نوعا من التحدى لكل اللوائح والنظم.. وعقدت ادارة المستشفى اجتماعا للنظر فى وضع «ماكمورفى».. هل هو مجنون فعلا.. أم أنه مجرم خطير..؟ وما الحل بالنسبة له.. هل اعادته إلى مزرعة العمل هى الوسيله

للتـخلص منه..؟ .. ولكن الممـرضـة «راتشـد» تعلن أنه من الخطأ خروجه إلى أى مكان آخر.. فواجبهم أن يعالجوه!

وكأن الممرضة قررت ان تستبقيه لتنتقم منه!!

●●

ويكتـشف «مـاكـمـورفى» من خـلال حـواره الحـاد مع حـارس العنبـر.. إنه لن يخـرج من هذه المستـشفى.. فـهو مـسجـون داخله حتى يتقرر الوقت المناسب لخروجه.

ويذهل «ماكمورفى» لهذه الحقيقة المؤلمة.. وفى الاجتماع مع المممرضة «راتشد» يثير هو هذه النقطة.. وبذكائها المخيف تطرح الموضـوع للمناقشة.. لتتكشف حقـائق له أكـثر ايلامـا.. فبـعض المرضى من زمـلائه.. جـاءوا إلى هذا المسـتـشـفى باخـتـيـارهم.. ويفـجع هو لهـذه الحقيقـة.. كيف يأتى المرء إلى الجـحـيم بمحض اخـتـيـاره.. ويصـيح فيـهم.. وبعضـهم يضـحك لانفـعاله.. فـيـزداد صياحه وكأنه يذكرهم بحياتهم الضائعة «أنكم تكتفون بالشكوى من هذا المكان.. ثم لاتملكون الجرأة للخروج منه.. هل أنتم مـجانين.. أم ماذا؟ أنكم أكثر عقلا من هؤلاء الذين يسيرون فى الطريق.. لا أكاد أصدق ما أراه وأسمعه فى هذا المكان اللعين..»!!

ولكن هذا الاحـتـجـاج الـغـاضـب من «مـاكـمـورفى» لا يلاقى أى صـدى بين زمـلاءه.. فـأغلبـهم مـشـغـول بأمـوره الخـاصـة.. هذا العـجـوز الذى يردد دائما «أنا مـتـعب».. وهـذا الشـاب الـصـغـيـر الذى

يتلعثم عندما يتكلم. فيذوب خجلا ورعبا من مواجهة الممرضة التى تعرف نقطة ضعفه بالنسبة لأمه، ودائما ما تخيفه بأنها ستبلغ أمه بما يفعله.. ثم هناك هذا الرجل الذى يبكى حزنا على فقد سجائره، والذى تواجهه الممرضة بقسوتها البالغة وتعامله كطفل مذنب. تصادر سجائره لأنه وافق على اللعب بأوراق الكوتشينه ودخل فى مراهنات مع «ماكمورفى».

ولا يحتمل «ماكمورفى» رؤية زميله يبكى متوسلا للحصول على سجائره.. فيندفع إلى حجرة الممرضة ويحطم زجاجها.. ويمد يده داخل الزجاج المهشم ليلتقط علب السجائر من الداخل.

وفى هذه اللحظة ينقض الحارس عليه ليضربه بشدة.. وتدور معركة حامية يشترك فيها المريض الهندى العملاق الذى يمسك بالحارس ويكاد يحطمه.. وبسرعة تدق أجراس الانذار.. فتأتى مجموعة أخرى من الحراس الأقوياء الذين يسيطرون على الموقف ويسحبون المرضى المشاكسين إلى مصيرهم الجديد.

أنه عنبر المصابين بالهياج والذين يعالجون بالصدمات الكهربائية.

وهم الثلاثة المرحلون إلى هذا العنبر: «ماكمورفى» - والعملاق الهندى - والمريض الذى بكى على سجائره.

●●

ويجلس الثلاثة على باب غرفة الصدمات الكهربائية فى انتظار تنفيذ العلاج الجديد.. أو بمعنى أدق العقاب الجديد.

المريض الذى بكى على سجائره، يواصل توسلاته الحارة وجسده يرتعد خوفا.. «لا أريد أن أدخل هذه الغرفة.. ساعدنى يا «ماكورفى»... أننى لم أفعل شيئا».

ويشعر «ماكمورفى» بقدر هائل من التعاسة والعجز عن التصرف.. ويردد ما يشعر به.. واندهشته الشديدة يفاجأ بأن العملاق الهندى يجيب عليه.. إنه يسمع.. إنه يتكلم.. ويصيح «ماكمورفى» بفرح حقيقى: «يالك من ماكر.. لقد خدعتهم جميعا»!

لقد عاش هذا العملاق الهندى طوال فترة أقامته فى المستشفى وهو يدعى الصم والبكم، هربا من هذا الاشتراك العقيم فى المناقشات بحجة العلاج.. لقد فضل أن يغلق الابواب على نفسه، وأن يطل على الجميع يراقبهم فى صمت.. وكأنه يختزن هذه الطاقة الغريبة حتى وجد فى شخصية «ماكمورفى» الآمان والثقة والرغبة فى الانضمام إليه.. لقد اختار اللحظة المناسبة جدا لكى ينطق.. ويعلن عن شخصيته.. أنه يفكر فى الهرب أيضا مثل «ماكمورفى» بل يقترح أن يكون هدفهم إلى كندا... وسرعان مايوافق «ماكمورفى» على فكرة الهرب إلى كندا.. ويعد بأنه سيدبر الطريقة لذلك وتنتهى هذه اللحظة المتوهجة بدخول «ماكمورفى» إلى غرفة الصدمات الكهربائية.

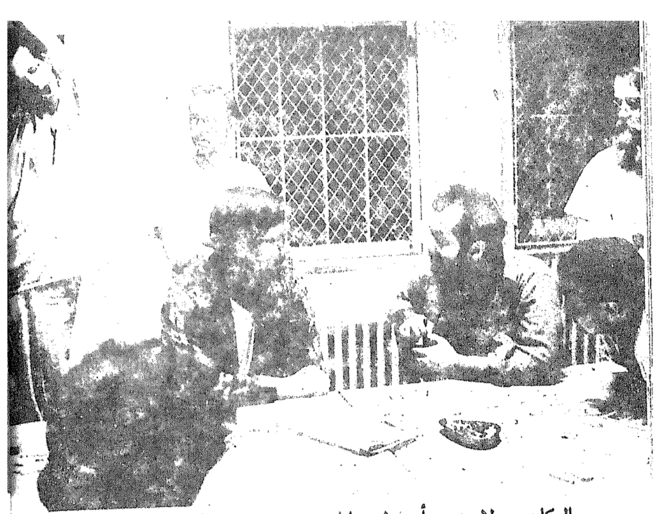
فى هذه الغرفة المرعبة نشاهد أربعة حراس أقوياء يشلون حركته، ثم يوصلون التيار الكهربائى إلى جسده.. فيهتز الجسد بشدة وكأنما تحول إلى دجاجة مذبوحة تضرب الأرض باجنحتها. هذه الضربات الأخيرة قبل الموت.

أنه العلاج لمن يحاول الاعتراض!!

وتتوالى عملية العلاج بالصدمات الكهربائية.. ويعود «ماكمورفى» إلى عنبره الأول ليلتقى بزملائه اثناء اجتماعهم مع الممرضة «راتشد».. أنه يسير مهدودا وقد نبتت ذقنه وغارت عيناه.. ولكنه يحاول أن يتماسك أمام الجميع وبالذات أمام الممرضة «راتشد» أنه يتعمد المرح وهو يرد على استفسار أحد زملائه حول حالته الآن.. فيقول: «أننى فى أطيب حال.. كانوا يعطوننى يوميا عشرة آلاف وات.. أشعر أن جسمى يكاد يشتعل والمرأة التى سوف أتزوجها ستضئ مثل جهاز المراهنات فى الملاهى»!!

ويضحك الجميع.. بينما العملاق الهندى ينظر إليه فى حزن.. فهو الذى يدرك مدى معاناته، لأنه هو أيضا تلقى نفس المصير.

ولكن «ماكمورفى» يواصل احتجاجه على هذا النظام، وعلى وحشية هذا المكان.. فهو يدبر اتصالا تليفونيا مع فتاته.. التى يبلغها بضرورة حضورها إليه فى المستشفى ليلا.. ومعها سيارة بأى وسيلة حتى ولو سرقتها.. فهو قد قرر الهروب من هذا



المكان.. ولا ينسى أن يبلغها ان تحضر معها بعض زجاجات الخمر.

وتأتى الفتاة بالفعل، ومعها صديقة أخرى لها.. والاثنتان يحملان حقيبة مليئة بزجاجات الخمر.. ويتقدم «ماكمورفى» من الحارس ليرشيه ببعض الدولارات وأمنية أن يقضى ليلته مع احدى الفتاتين.. ويستجيب الحارس لهذا الاغراء.. وتدخل الفتاتان.. ويموج العنبر بالحركة والحيوية والمرح.. فالجميع يشربون.. ويندفع «ماكمورفى» ناحية الميكرفون فى حجرة الممرضة «راتشد» ليدير الموسيقى وينادى على زملائه: «تعالوا.. نسمع الموسيقى ونستمتع بكل شئ».



ويحـاول الحـارس السيطرة على الموقف.. ولكن لا أحـد يبـالى بتحذيراته.. حتى يلمح الحارس دخول أحدى المشرفات فى دورية الليل.. فيعودون بسرعـة إلى سرائرهم.. ولكنها تكتشف وجود فتاة فى غرفة الحارس فتؤنبه وتأمره باخراجها فورا.. بينما هو يتعال بالوحـدة.. وتنصرف المشرفة وسط رعب الحارس وقلقه.. ولكن بعد لحظات يعود جميع من فى العنبر إلى الموسيقى والرقص والشـراب والمرح.. والفـتـاتان ترقـصـان بنشـوة وسط هذا الجـو الصـاخب الذى يديره ويحـركـه «ماكـمـورفى».. بينما العـملاق الهندى ينظر له وكأنه ينتظر لحظة الهروب.

وتأتى اللحظة التى يقررها «ماكمورفى» عندما يصل الجميع

إلى حالة النشوة.. ويقوم هو بفتح نافذة العنبر التى سيقفز منها مع الفتاتين ومع العملاق الهندى.. ولكن يلاحظ «ماكمورفى» أن زميله الشاب المتلعثم ينظر له وكأنه يتمنى الخروج معهم: «لا أظن أنه يمكننى ترك هذا المكان.. ولكنى أتمنى أن أرافقكم».

أنه يجد فى «ماكمورفى» الرجل المنقذ والصديق العطوف ولكن بداخله هذا الاحساس بالعجز والتردد مما يجعله يخشى الاقدام على المغامرة.

ويلمح «ماكمورفى» نظرات الشوق والرغبة فى عينى هذا الشاب تجاه احدى الفتيات فيقدمها له «ماكمورفى» ويشجعه.. ويدفع الفتاة إليه وسط تهليل بقية المرضى الذين يسعدون لرؤية زميلهم الشاب المتعلثم وفى ذراعه هذه الفتاة الجميلة.

لقد فضل «ماكمورفى» أن يسعد زميلا له ويحقق له رغبة مكبوته.. على أن ينتهز فرصة فتح النافذة للهرب.

وتنقضى الليلة الصاخبة فى عنبر المرضى.. كلهم سعداء.. والشاب المتعلثم فى حضن فتاة جميلة.. والنافذة مفتوحة.. ولم يقترب منها أحد.

ويأتى الصباح ومعه تأتى الممرضة «راتشد» وزملاؤها الممرضون والحراس.. ليفاجأوا بهذا المشهد المثير.. وتبدأ على الفور فى غلق النافذة المفتوحة والتتميم على عدد المرضى وتكتشف غياب الشاب المتلعثم.. ويقوم الحراس بتفتيش المكان

كله.. حتى يجدونه فى احدى الغرف عاريا وفى حضنه الفتاة عارية.. ويخرج الشاب مرتبكا ولكن على وجهه ابتسامة هادئة.. وللمفاجأة يتكلم بدون تلعثم ليواجه الممرضة «راتشد». التى تنظر له بشراسة وغيظ.. تسأله بلهجة تأنيب قاسية: «ألا تشعر بالخجل»؟ يرد بثقة وهدوء لأول مرة «أبدا.. لا أشعر بأدنى خجل»! ويصفق له زملاؤه المرضى على شجاعته.. ويهللون بفرح.. ولكن الممرضة «راتشد» تشهر سلاحها فى نقطة ضعفه.. وتبدأ فى تهديده بابلاغ أمه.. وتمارس الممرضة هذا التهديد بقسوة بالغة.. حتى ينهار الشاب ويعود إلى تلعثمه، وهو يتوسل اليها ألا تبلغ أمه.. ويستنجد الشاب بصديقه «ماكمورفى» الذى يراقب فى ذهول وغضب هذا الابتزاز الواضح.. ويركع الشاب على ركبتيه وهو يتوسل للممرضة... ولكن الممرضة تتركه وقد شعرت بانتصارها عليه!

ويندفع الشاب إلى حجرة جانبية.. لينتحر بقطعة من الزجاج يمزق بها شرابينية!!.

ويفجر هذا الحادث البشع كل غضب «ماكمورفى» الذى يهجم على الممرضة يحاول خنقها.. وتقاوم الممرضة بشدة.. حتى تفلت من بين يديه.. ويقبض على «ماكمورفى».

●●

ويتلقى «ماكمورفى» عقابه بالصدمات الكهربائية.

ويتحول إلى شبح إنسان.. لقد قضوا عليه تماما.. أصبح لا يستطيع الحركة.. لا يعى شيئا.. استنزفوا كل طاقته وحيويته بالصدمات الكهربائية.

ويعود إليه صديقه العملاق الهندى يحاول ايقاظ الحلم الجميل بالهرب إلى كندا والخروج من هذا الجحيم.. ولكن العملاق الهندى يكتشف ان صديقه تحول إلى جثة تتنفس.. فيؤلمه جدا هذا المصير الذى وصل إليه صديقه ورمز القوة والاحتجاج.. فيجثم العملاق الهندى واضعا مخدة على وجه صديقه «ماكمورفى» حتى يكتم أنفاسه تماما.. لقد رأى أنه من الأفضل له أن يموت بدلا من استمرار التعذيب وتصفيته يوما بعد يوم.

ويموت «ماكمورفى» على سريره.. وينطلق العملاق الهندى ليواصل المهمة.. أنه يتجه إلى حيث القاعدة الرخامية المثبت بها صنابير المياه.. هذه القاعدة التى حاول «ماكمودفى» أن يقتلعها ولكنه لم يستطع وكانت جملته التى عبرت عن الاحتجاج والمقاومة ولكنى حاولت اليس كذلك»؟

هاهو العملاق الهندى يبذل جهدا خارقا لاقتلاع هذه القاعدة الرخامية.. أنه يحاول بكل طاقته وبكل مخزون الغضب والمرارة لكل ما حدث حوله.

وينجح العملاق الهندى فى اقتلاعها.. ويحملها على ذراعيه بصعوبة.. ولكنه يتحرك بقوة دفع داخليه.. حتى يصل إلى النافذة

الزجاجية للعنبر.. ويلقي بالقاعدة الرخامية على زجاج النافذة، الذى يتحطم تماما.. ويقفز العملاق الهندى من فتحة النافذة.. إلى الخارج.. إلى حيث الحرية.

وينتهى الفيلم مع خطوات العملاق الهندى متجه إلى الافق مع اصوات الطبيعة وزقزقة العصافير.. وتباشير فجر يوم جديد.

●●

وهكذا.. طار أحدهم فوق عش المجانين.. إلى الحرية.

إنه الخروج من دائرة التسلط والقهر والنظام الحديدى الذى يتستر بثياب الديمقراطية.

وقد صنع المخرج «ميلوش فورمان» هذا الفيلم بحس سينمائى شديد الرهافة.. إنه يغوص داخل النفس البشرية فى حالة عدم توازنها واختلالها .. ليقدم من هذه المأساه . فلسفة موضوعية دون أن يتورط فى تقديم شخصياته بأسلوب يستفيد من حالة الجنون، كأن يضحكنا بلا سبب، أو يجعلنا نعطف عليهم لمجرد أنهم فقدوا عقلهم!! بالعكس أنه يقدم الابتسامة الصافية والضحكة المرحة.. وفى نفس الوقت نشعر بأننا مغروزون داخل هذا المكان.. وأن الموضوع يمسنا جميعا.. فالقضية هى الحرية.

وبرع المخرج فى التحكم فى ممثلى فيلمه.. وقد كانت تعبيراته وانفعالاتهم مدروسة بدقة وأحكام.. فاى خطأ صغير من أحد

الممثلين كان من الممكن أن يحول الفيلم عن القضية التى يعرضها!.

ومن المثير تماما أن تشاهد هذا الفيلم أكثر من مرة دون أن تفقد متعة وانبهار الرؤية الأولى.. وهذا سر آخر من اسرار الفيلم.. وتظل تذكر دور «جاك نيكولسون» فى شخصية «ماكمورفى».. ودور المرضة الشرسة الذى لعبته «لويز فيلتشر».. ودور الشاب الخجول المتلعثم الذى يتعذب بسيطره أمه ثم بإرهاب الممرضة. هذا الدور العظيم الذى لعبه باقتدار المثل «براد دوريف» ثم دور العملاق الهندى الذى آثر الصمت حتى وجد الوقت المناسب للكلام، لعب هذا الدور الممثل «ويل سامبسون».

ونظل نذكر أيضا براعة التصوير فى حدود المكان الواحد داخل المستشفى الذى استغرق كل مشاهد الفيلم، ما عدا مشهد الخروج إلى النزهة البحرية.. (قام بالتصوير: هاسكل وكسلر - وبيل باتلر).

وموسيقى (جاك نيتشه) التى كانت توحى بالحزن والالم.. والمونتاج الدقيق لريتشارد تشو

وسيناريو الفيلم كتبه (لورنس هوبن - وبو جولدمان) عن رواية «بن كيزى» الذى كان قد عمل كمساعد فى مستشفى للإمراض النفسية، والذى أعلن أنه كتب روايته هذه من وحى الشخصيات التى قابلها فى الواقع اثناء عمله فى هذا المستشفى باستثناء شخصية العملاق الهندى التى قام بتأليفها.

●●

والمخرج «ميلوش فورمان» من أصل تشيكى، ولد بمدينة «كاسلاف» التشيكية عام ١٩٣٢ .. ومات والداه فى معتقل التعذيب النازى.. واستمر فى دراسته حتى تخرج من معهد السينما فى براغ وبدأ فى كتابة السيناريوهات وإخراج أفلام ١٦ مللى.. وفى عام ١٩٦٤ اخرج أول أفلامه الطويلة «بيتر وبافلا» الذى حصل به على الجائزة الكبرى فى مهرجان «لوكارنو» السينمائى.. ثم كان فيلمه الثانى «غراميات شقراء» عام ٦٥، والذى حصل به على جائزة مهرجان «فينسيا» والاكاديمية الفرنسية.. ثم بعد عامين أخرج فيلم «كرة رجال الاطفاء» وكان هذا آخر فيلم يخرجه فى تشيكوسلوفاكيا.. حيث هاجر منها بعد أحداث عام ٦٨ .. وخسرت تشيكوسلوفاكيا أحد كبار فنانيها، والذى كان يعتبر من ألمع مخرجى السينما الجديدة فى تشيكوسلوفاكيا.

واستقر فى أمريكا حيث أخرج «الهروب» عام ٧٠، وحصل به على جائزة لجنة التحكيم فى مهرجان كان.. ثم كان فيلمه «احدهم طار فوق عش المجانين» عام ٧٥ والذى اكتسح به خمس جوائز أوسكار هامة.

الفهرس

هـذا الكتــــاب ٩

المجموعة الأولى: العنف، البذور والثمار ١٥
بونى وكلايد ١٧
كلاب من قش ٣٣
بورجوازى.. صغير.. صغير ٤٧
راعى بقر منتصف الليل ٧٥
سائق التاكسى ٨٥
كاسبار هاوزر ١١١
جثث لذيذة ١٤١

المجموعة الثانية: الحرب وما حولها ١٥٩
يوم خـاص ١٦١
العودة إلى الوطن ١٨٥

المجموعة الثالثة: شرف المحاولة للخلاص من المأزق ٢٠٩
رسائل من ماروسيا ٢١١
أحدهم طار فوق عش المجانين ٢٢٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٧/١٠٢٥٣

I.S.B.N 977-01-5423-7

■ رءوف توفيق

- تخرج فى كلية التجارة جامعة عين شمس عام ١٩٥٩.

- ألحق بمجلة «صباح الخير» عام ١٩٥٨. وقام بجولات صحفية على طول خريطة مصر.. وبدأ كتابة النقد الفنى عام ١٩٦٥.. وعمل مديراً لتحرير مجلة «صباح الخير» فى الفترة من ٧١ وحتى ٧٧.. ثم رئيساً للتحرير فى عام ١٩٩٤ وحتى الآن.

- قدم للتليفزيون ثلاثة مسلسلات من تأليفه.. وللسينما ثلاثة أفلام: «مشوار عمر»، «زوجة رجل مهم»، «مستر كراتيه».

- أصدر للمكتبة السينمائية سبعة كتب عن الاتجاهات العالمية فى السينما.

- شارك فى لجان تحكيم مسـ... المصرية. واختير فى عام ٨٥ رئيساً ... النقاد لمهرجان فالينسيا السينمائى

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب